

اغتصاب كان وأخواتها

محمد الماغوط

حوارات حرَّرها خليل صويلح

الطبعة الأولى ٢٠٠٢

دار البلد

حطّاب الأشجار العالية

ما الذي فعله الماغوط بنا ؟

كيف صار لهذا الشاعر المتشرد على الأرصفة، أن يصنع للعراة تاجاً من الوحول، وأجنحة للحلم والتمرد؟

من أي منجم عميق، نبش كل هذه الكنوز من الآلام والشكوى والمرارة؟

ومن أي فاكهة غامضة، اخترع كل هذه الكيمياء من عصير الحياة المرَّة؟

وكيف صنع من عجينة الموت اليومي، كل هذه التماثيل، مثل خزَّاف سومري ذاهب إلى الأبدية.

قبل نصف قرن، جاء إلى مائدة الشعر جائعاً، فقلب الطاولة على الجميع ثم صفق الباب وراءه وخرج، كأي مغن جوال، يشكو آلام العزلة وخراب الروح، حزيناً إلى حدود الصراخ، ووحيداً مثل بدوي تائه في الصحراء في ليلة مظلمة.

وها هو يهتدي إلى بوصلة الشعر، ويقذف حممه إلى كل الجهات.

ومنذ "حزن في ضوء القمر" اخترع معادلة جديدة للشعر، لا تشبه أية معادلة أخرى.

وكان على أسلاف الخليل بن أحمد الفراهيدي، أن يخترعوا بحراً آخر بلا ضفاف، وأن يحنوا رؤوسهم أمام قصائد الماغوط المتمرد على كل البحور والأوزان.

أما الماغوط نفسه، فلم يعبأ بآراء النقاد بما كان يكتب، ولم يلتفت إلا إلى صوت روحه، وصخب أضلاعه ودمار دورته الدموية، وكان كلما وجد ذاته في "برواز "يقوم بتحطيمه، لأنه ولد في العراء حيث لا شيء نهائياً في مفازة السراب.

بكل وحشية دخل غابة الشعر وبفأس حادة، أخذ يحطّم الأشجار العالية، ليعيد إلى القصيدة حسيتها وللأشياء ملمسها الخشن، وللفم صراخه التاريخي ضد الظلم، فهذا الحطّاب اللغوي، لم يكتف ببضعة أغصان يابسة لإشعال موقده، بل أراد إحراق الغابة بكل ما فيها غير آبه باحتجاجات فقهاء البلاغة وأصحاب المساطر الدقيقة في توصيف ما هو شعر وما ليس شعراً.

وفي الوقت الذي كان يتغنى الآخرون بالحرية وأمجاد الحياة، كان الماغوط يضرب بقبضته العنيفة الجدران الصلبة مشيراً بسبابته إلى "غرفة بملايين الجدران" وإلى أن "الفرح ليس مهنتي" فهو شاعر الحزن بامتياز.

هكذا دخل الماغوط إلى صالون الشعر بأصابع ملوثة بالحبر ومعطف ثقيل من الأحزان، من دون

بزة رسمية وربطة عنق، لا بل جاء بالبيجاما، ما جعل الرسميين يتململون في مقاعدهم، وهو يحطِّم أصابع البيانو ويستبدلها بعويل القصب ورائحة البراري. نعم من الصعب ترويض الماغوط، فالنسور لا توضع في الأقفاص، إنما تحلّق عالياً في السماء الزرقاء، حتى تتعب من الطيران.

خليل صويلح

نصوص متلبّسة
بالجريمة الكاملة

أول مرة ، قابلت فيها محمد الماغوط ، كانت في منزله أوائل التسعينات ، للإتفاق على إجراء مقابلة صحفية معه ، برفقة أحد الأصدقاء ، ولأننا نعلم رفضه التام للاستجواب ، فقد أحضرنا معنا آلة تسجيل ، ووضعناها سراً ، تحت الطاولة ، وكان الماغوط منتشياً على غير العادة ، فاستقبلنا بمحبة ، وأحضر لنا زجاجة ويسكي كاملة ، وكان كلما نهض لإحضار شيء ما ، من المطبخ نطمئن على وضع آلة التسجيل ، وتبديل وضع الشريط . وبالحقيقة فقد كان الماغوط متجاوباً إلى أقصى حد ، مع أسئلتنا التي اعتبرها دردشة في سهرة ، إلى درجة أنه ، حين كنا نسأله عن بعض الشعراء يجيب بجدية: "ألم يمت في حرب الخليج؟" وفي نهاية السهرة، وبعد ثلاثة أقداح من الويسكي الفاخر والفستق الحلبي الوفير، اعترف صديقي أننا سجّلنا الحديث كاملاً ، فما كان من الماغوط إلا أن صادر شريط الكاسيت ، ورفض إعادته إلينا ، وأمام إلحاحنا على استعادته، قال: "ستسمعه ابنتي شام ، وإذا وافقت على محتوياته ، سأعيده لكما"، لكننا لم نستعد هذا الشريط أبداً، ولأنني كنت متأكداً من فقدانه إلى الأبد، قلت لصديقي: "تعال نفرّغ الكاسيت من الذاكرة"، هكذا قطعنا الشارع، واتجهنا إلى منزلي الذي يبعد عن منزل الماغوط نحو مئة خطوة.

وبالفعل، استعدنا كل ما دار في الجلسة، وما ساعدنا على تذكّر إجابات الماغوط ، أنه كان يختزل أكبر قضية أو مشكلة، بمجرد جملة واحدة، أشبه ما تكون بالمانشيت الساخن، من دون أن نخلو من هجاء مرير.

بعد أسبوع ، اتصلنا به مرة أخرى، لاستعادة الشريط، لكنه رفض إعادته، وحين طلبنا موعداً لمقابلة، قال: "اتصلا حين يهطل المطر أول مرة". لكن أمطار كثيرة هطلت ، ولم تتم هذه المقابلة أبداً.

كنت أخشى أن أحييه، حين أقابله على الرصيف بقبعته المائلة، وجهاز "الوكمان" على أذنيه، متجهاً إلى مقهى "أبو شفيق "صباحاً، أو وهو عائد من "مقهى الشام" مساءً، معللاً الأمر، أنه لن يتذكرني من مجرد زيارة واحدة.

والآن، حين أتذكر أول مرة، تعرفت بها على اسم محمد الماغوط، أستعيد صورة ذلك الفتى الناحل، أمام "مكتبة الحرية" في مدينة الحسكة، وقد أنهيت امتحانات البكالوريا، وبدأت أتلمس معنى الكتابة والقراءة.

دخلت إلى المكتبة لشراء بعض الكتب الشعرية، ووقع نظري على عنوانين: "حزن في ضوء القمر"، و "غرفة بملايين الجدران"، واخترت العنوان العنوان الثاني، ربما لتأثيره الطاغي في نفسي، إذ كان عليّ أن أختار كتاباً واحداً، بما يتناسب مع نقودي، بعد أن صرفت كل ما لدي لشراء كتب أخرى، أذكر منها: "سيف اللهب" لبابلو نيرودا، و"أحلى أشعاري" لنزار قباني.

وفي تلك القرية النائية عند تخوم الصحراء، كنت أستعيد أشعار الماغوط ونزار قباني ونيرودا، على ضوء قنديل الكاز، وفي أحيان أخرى، أجرّب أن أكتب شعراً، بدون نجاحات تُذْكر، إذ ليس لدي عمل آخر غير القراءة، في قيلولات طويلة، كانت تمضي ببطء، وضجر لا يطاق.

وحين جئت إلى دمشق، اكتشفت ديوان الماغوط الثالث "الفرح ليس مهنتي"، وكان بالنسبة لي، أشبه باكتشاف جسد امرأة لأول مرة، مندهشاً من كل هذه الصور المبتكرة، وذلك التمرّد العنيف والوحشي لكل ما هو مستقر، فقد كان الماغوط" كولومبس" الشعر الجديد بلا أدنى شك.

وليس من المستغرب على الإطلاق، أن يخرج جيلين من الشعراء على الأقل من غرفته بجدرانها الملايين، ويستبيحون عالمه بكل احتداماته وارتطاماته القاسية بالأرض الصلبة، فالماغوط لم يأنسْ لحظة واحدة، إلا لما هو دنيوي ومحسوس، ويُلمس بالأصابع.

لكن صاحب "العصفور الأحدب"، رغم كثرة تلاميذه ومريديه، ظل وحيداً في مفازته، ومنفاه، لأنه حين كتب أشعاره، كان يكتب دماره الشخصي، ومأساته الخاصة، ولم يفكر أبداً بما يكتب، وهل سيرضى عنه الفراهيدي أم السياب، وحتى أدونيس، الذي كان أول من قدمه لجماعة "مجلة الشعر" في بيروت، أواخر الخمسينات.

ويعترف الماغوط، أن معلمه الأول ليس رامبو، كما توقّع جماعة" مجلة شعر"، بل شاعر من السلمية هو سليمان عوّاد.

رهبة الاقتراب من الماغوط، والتعرف عليه عن كثب، انتهت منذ سنوات ، حين اتصل بي ذات ظهيرة بصفتي مراسلاً ثقافياً لمجلة "الوسط" اللندنية، حيث كان يكتب زاوية أسبوعية بعنوان: "تحت القسم."

ذهبت إليه في المساء، وأصبحنا أصدقاء فوراً. وهكذا كان عليّ أن أمر به، مرة في الأسبوع لمرافقته إلى مكتب للتنضيد الطباعي، والاطمئنان مباشرة على أن زاويته تخلو من أي خطأ، حتى لو كان فاصلة أو إشارة تعجّب، وكنت أراجع مادته، ثم يراجعها هو، ونعود إلى منزله متكئاً علي بمساعدة عكازه.

وخلال هذه السنوات ، زرته أكثر من مرة، خصوصاً خلال مرضه الأخير، أو كنت أطمئن عليه هاتفياً، وحين يكون مزاجه رائقاً، وهذا نادراً ما يحدث، كان يقول لي: "مرّ وخذ كأساً."

طبعاً ، هذا إنجاز رائع لمن يعرف الماغوط وسوداويته المفرطة وكآبته الدائمة وريبته تجاه الغرباء، ها هو وقد أخذ يثق بي، ويطلعني على بعض أفكاره، ولاحقاً رسائله الخاصة .مرة، اتصل بي وقال لي: "لدي ما أطلعك عليه."
ارتديت ثيابي على عجل، وذهبت إلى منزله.

وحين وصلت، ناولني رسالة صغيرة، كانت بتوقيع سعاد حسني، كتبتها له خلال وجوده ذات مرة في القاهرة، وتعرب فيها عن أسفها، أنها جاءت لزيارته في الفندق ولم تجده، وتركتها في قسم الاستقبال، وتتمنى أن يزودها يكتبه. قلت له: "أعطني هذه الرسالة كي أكتب خبراً صحفياً عنها"، لكنه تراجع عن حماسته الأولى، ورفض.

ولعل قيمة هذه الوثيقة، في أنها بخط سعاد حسني، ودفئها في اختيار العبارات الرقيقة لشاعر كبير مثل الماغوط.
على مدى سنتين على الأقل، كنت أسعى للحصول على أرشيف الماغوط، بعد أن وعدني به، لكنه كان يتذرع دائماً بالفوضى، وأن أرشيفه في "السقيفة" ويحتاج عدة أيام لنبشه وفرزه، وكنت مجبراً، أن أنتظر مزاجاً رائقاً لديه، كي يفرج عن كنوزه.

قبل ذلك، مرّ وقت طويل، قبل أن يجمع زواياه وبعض قصائده في كتاب، بعد أن وعد "دار المدى" أكثر من مرة بتسليم الكتاب، وكان اختار له اسم "شرق عدن غرب الله."
وحين اتصل بي، لتنسيق مواد الكتاب، وجدتها فرصة كي أستعيد قراءة كتاباته القديمة والجديدة، وكأنني أقرؤها للمرة الأولى، وتشتمل هذه المواد على ما كان يكتبه في مجلة "الكفاح العربي" تحت عنوان: "كاسك يا وطن"، وكتاباته في مجلة "الوسط"، إضافة إلى بضعة قصائد قديمة، واحدة منها منشورة في العام ١٩٧٠، بعنوان "آخر كلاب الأثر" وقصيدته المؤثرة التي كتبها في رثاء رفيقة دربه "سنية صالح"، هي قصيدة "سيّاف الزهور."

وبعد أن رتبت مواد الكتاب حسب تسلسلها الزمني وحسب نوعها الإبداعي، وقعنا في حيرة العنوان، بعد أن احتجت بضع رقابات عربية على اسم "شرق عدن غرب الله"، فقد كتبت أكثر من خبر صحفي عن قرب صدور كتاب محمد الماغوط الجديد، وكنت أكتشف أن العنوان يسقط من سياق الخبر، وخوفاً من منع الكتاب في معارض الكتب العربية، اقترحت عليه تغييره، ورغم أنه رفض الأمر في البداية، إلا أنه تراجع أخيراً، برغبة انتشار الكتاب بين أيدي القراء العرب، وابتعاداً عن شهرة مجانية، كان زاهداً بها. فليست كتب الماغوط من النوع الذي يباع سراً أو "تحت الطاولة" وهكذا صدر أخيراً بعنوان: "سيّاف الزهور."

كنت في كل زيارة، أقوم بها إلى منزل محمد الماغوط، أذكره بوعده، أن يطلعني على أرشيفه الصحفي، دون أن أفقد الأمل. وأخيراً، اتصل بي منتصف هذا الصيف، وقال: "مرّ وخذ كأساً ..

واطلع على الأرشيف."
قفزت من مقعدي، واتجهت إلى منزله.

وجدت خمسة مغلفات ضخمة، هي حصيلة ما جمعه إلى الآن، أما البقية فتحتاج إلى مزاج آخر. حملت مغلفين من الخمسة، الأول يحتوي على أهم الدراسات والشهادات التي كتبت عنه في الصحف والمجلات، والثاني يضم معظم المقابلات التي أجريت معه، منذ العام ١٩٦٥ وحتى اليوم.

صرفت أكثر من عشرين ساعة متواصلة تقريباً، في قراءة الحوارات المنشورة في صحف ومجلات عربية متفرقة، وهي تفوق الأربعين حواراً، أُجريت مع الماغوط بمناسبات مختلفة، ولعل الأمر اللافت هنا، أن الشاعر الاستثنائي، لم يغيّر أقواله أبداً، منذ أول حوار إلى آخر حوار معه، وكأنه يوقّع على محضر شرطة في قضية اتهام.

والأمر نفسه، ينسحب على عناصر قصيدته، فمن يقرأ أعمال الماغوط ، يكتشف دون عناء، أن تمرده اللغوي والحياتي، لم يتزحزح قيد أنملة، منذ أول قصيدة في ديوانه الأول" حزن في ضوء القمر" إلى آخر قصيدة نشرها في كتابه "سيّاف الزهور."

وهذا ما يدعو إلى التأمل في مسيرته الشعرية والكتابية عموماً، وكأنه صنع في مختبره الإبداعي، وصفة كيميائية للغة والصورة والرؤية، وحملها كتميمة بين أضلاعه، أينما حل، وكيفما أتى، فالمفتاح ذاته، يُستعمل لفتح كل الأقفال والأقفاص المغلقة، سواء في دواوينه أو مسرحياته أو مقالاته الغاضبة.

ذلك أن الماغوط يقتنص طريدته بالشباك ذاتها، في كل مرة، دون أن تكتشف هذه الطرائد، أنها تقع بين أضراسه اللغوية بنفس الطريقة التي أوقع بها النصوص التي سبقتها إلى المصيدة.

وحين سألته مرة عن هذا الأمر، قال: "أنا وصلت إلى قناعات محددة منذ نصف قرن، ولن أحيد عنها، لأنني لم أجد ما ينسف هذه القناعات إطلاقاً."

الأسئلة الأخرى التي حاورته بها، تؤكد على أصالة قناعاته، التي طالما رددها في مختلف

حواراته، منذ شبابه الأول وحتى كهولته: التهكم نفسه، الحزن نفسه، الضجر نفسه، التمرد نفسه، وكأنه في كل مرة، يدير الأسطوانة ذاتها، طالما أن الأسئلة تدور حول الشعر والحرية والخوف والسجن والوطن والعزلة والمقاهي والشعراء والنقاد.

وذا رغب أحد ما، في كتابة سيرة محمد الماغوط، فإنه سيجدها مبثوثة في كتاباته، خصوصاً في روايته الوحيدة "الأرجوحة"، التي كتبها في العام ١٩٧٤، فما أن تقرأ بضع سطور من هذه الرواية، ستكتشف أن "فهد التنبل" هو محمد الماغوط نفسه، وأن "غيمة" المرأة التي أحبها بجنون هي "سنية صالح" التي أصبحت زوجته لاحقاً، وهي الجرح الذي لن يندمل أبداً، منذ رحيلها في العام ١٩٨٥، وربما كان سبب انكساره ومرضه وإدمانه الكحول، هو غياب سنية صالح المفجع من حياته.

كنت وأنا أسترجع إجاباته في الحوارات المنشورة معه، أرمم الثغرات بأسئلة جديدة وتوضيحات، أحصل على إجاباتها منه بشكل موارب، فالماغوط يكره صيغة "السين" و"الجيم"، لأنها كما قال تذكّره بالتحقيق الأمني.

ورغم بعد المسافة بين فترة اعتقاله في سجن المزة في الخمسينات، وبين حياته اليوم وشهرته، إلا أنه لا يزال يرتعد في كل سطر كتبه ويكتبه، من السجن وفقدان الحرية، فهذا الرجل يهذي بالحرية مثل صلاة، ويركع عند عتباتها لاستنشاق رائحة نسمة عابرة من أطيافها، وربما لهذا السبب، غادر بلدته "السلمية" عند تخوم بادية حمص، وهو في الرابعة عشر من عمره، إلى دمشق، لدراسة الزراعة في معهد داخلي، كي يتخلص من بطش والده وقسوته، لكنه سرعان ما هجر التعليم، ليصير أمير التسكع على أرصفة دمشق، وملك التشرد في بيروت، وإمبراطور العزلة والضجر في المقاهي.

ولكن الماغوط لم ينسَ طفولته البائسة أبداً، وستظل تتردد في ذاكرته وذاكرة قصائده على الدوام، مثلما يتذكر صورة أمه التي تشبه الوشم الذي يزين معصم يده.

هكذا جمع الماغوط في شخصية واحدة، حرية الغجري وترحاله الأبدي، وريبة البدوي وشكوكه وأنفته، ولعل هذه الثنائية، فضلاً عن خجله الريفي هي جوهر شخصية هذا الشاعر المتمرد الذي لم يألف جداراً، ليسند جذعه إليه، حيث "لا شيء يربطني بهذه الأرض سوى الحذاء."

وهو حين يكتب، إنما ينحني على الورقة البيضاء، كمن يريد نحر الكلمات بمبضع جرّاح، لا بل إنه يغتصب "كان وأخواتها" مستعيداً أكثر العبارات بهاء ودهشة وابتكاراً، فليس لديه جملة واحدة فائضة عن الحاجة، وكأنه يريد صفعنا جميعاً مثلما كان والده يصفعه في طفولته، فاللغة في مختبره الخاص، هي أداة انتقام من كل أحزانه وآلامه، لذلك فهو يستنفر كل عناصرها ومفرداتها، مانحاً إياها نكهة الثمار الناضجة. لغة حامضة، تترك طعمها بين الأسنان.

ليس لدى الماغوط أصدقاء حميمين، عدا زكريا تامر الذي يشبهه إلى حد كبير في تمرده اللغوي والحياتي، هذا الحدّاد الشرس الذي تحوّل إلى كتابة القصة وفض بكارتها بمطرقته اللغوية الحادة.

وليس لديه امرأة، يتذكرها بحزن وحميمية، مثلما يتذكر سنية صالح، هذه المرأة الناحلة التي روضت شراسته في الحياة.
إن الماغوط ، ابن الحياة التي لا سقف لها، لأنه وُلد في العراء وظل يحاول ستر عورته إلى آخر حروفه الهاربة من أقفاص اللغة، نحو الحرية وهي متلبّسة بالجريمة الكاملة.

صحيح أن الحوارات معه، لا تشي بتفاصيل كثيرة عن حياته، لكن بلاغته في الإجابة، تغني عن حاجتنا إلى التفاصيل، لأن جملة واحدة يقولها في الحوار، تلخص حالة الماغوط في تلك اللحظة.

ونحن إذ نستعيد شريط حياة هذا الشاعر، إنما سنقع بنوع من الارتباك والتناقض الذي عاشه ، بين وحدانيته وعزلته، وبين شهرته الاستثنائية في المشهد الإبداعي العربي، بوصفه معلم قصيدة النثر العربية، وأكثر الشعراء حضوراً لدى القراء والنقاد، من دون أن يفلسف الأمر مرة واحدة، فهو يقول إنه يكره التنظير لكتابته، وليس لديه ثقافة معرفية خارج ثقافته الحياتية وتجاربه الشخصية، التي توازي أعتى العلوم الأكاديمية، بذهابه إلى التفاصيل الصغيرة وشحنها بأقصى حالات الألم.

رجل بلا طقوس، حزين، وسوداوي، ويائس، لكنه طفل صغير أمام أية نسمة إعجاب بكتاباته أو الاحتفاء به، ولو بخبر صغير كتبه محرر مبتدئ في صحيفة محلية.

ولد الماغوط في العام ١٩٣٤، في أقصى حالات الفقر، وجاء إلى دمشق في العام ١٩٤٨، حاملاً على ظهره أكبر حدبة بشرية من الأحزان والرفض، فتعرض للسجن والتعذيب والهروب

والاختفاء، ولا يزال إلى اليوم ، يتذكر بحنين تلك الغرف الصغيرة الواطئة التي قطنها في "باب توما" و "أبو رمانة" و "عين الكرش."

وحين جاء إلى الكتابة، لم يفكر أنه يخترق خطوط التماس وتقاليد الكتابة، فقد كتب أحزانه بالدرجة الأولى، ولم يعلم أنه كان قنبلة موقوتة، انفجرت شظايا، خارج "سجن المزة" الذي شهد تشكّل عالمه الكتابي.

وهكذا لم يجرؤ شعراء مدججين بالبحور والأوزان، على رفض نصوص الماغوط، بل اعترفوا بها، رغم رفضهم لقصيدة النثر.

أذهب إلى الماغوط وأستمع إليه، كما يرغب، دون أن نتفق على صيغة ما لتسجيل ما يرويه، لكنني وأنا خارج كل مرة، من منزله المتاخم لمنزلي في حي المزرعة – شارع أسامة بن زيد، انكب على أوراقي وأسجل بعض أقواله، لأنني على ثقة تامة، أنه لن يكتب مذكراته أبداً، كما وعدني أكثر من مرة، لسبب بسيط، يتعلق بمزاجه الشخصي وتبرمه من "الخلود"، حتى أنه أجاب أحدهم ذات مرة عن سؤال: "ماذا ستكتب على شاهدة قبرك؟"، بقوله: "لا شيء.. عليه!"

هذه الحوارات إذن، هي حصيلة أرشيفه الشخصي، وما طرأ عليه من إعادة صياغة، لتشكل بورتريه لشاعر اسمه محمد الماغوط، أعتقد لو أنه ولد في عصر آخر، لمات من الجلد على يد أحد الخلفاء، أو بُترت أصابعه، أو قطع لسانه، لأنه هجّاء من طراز خاص، لم تتوقف حنجرته عن الاحتجاج والسخط أبداً.

مسقط الرأس:
هناك حيث معتقل القرامطة والمتنبي والوحل
والبرد والأحلام

ولدت في مدينة سلمية في العام ١٩٣٤ ، ما هي التشكّلات الأولى في ذاكرتك عن هذه المدينة؟

في مطلع الثلاثينات، لم تكن السلمية مدينة، كانت قرية نائية وباسلة، تنظر إلى وحلها ودخانها وعيونها المحمرة كما تنظر الفرس إلى أجراسها. أما التاريخ الرقم المتسلسل في المعارك الكبرى، فيظل في جيب المختار.

ما أتذكره، أن الموت كان طبيعياً في تلك القرية، ضروري ومتوقع في كل لحظة. وعلى هذا الأساس، كان أطفال القرية شرسين كالحشرات، ورجالها لا يتورعون عن ضرب أشجارهم بالسوط، لأنها لم تثمر في الوقت المحدد. حتى دجاجها كان يصرخ باستمرار كأنه مصاب بذات الرئة .وقلما تجد دجاجة حية أو ميّتة إلا وعلى رأس منقارها قطرة أو قطرات من الدم. وعلى العموم كانت السلمية نقطة زيت كبيرة في ماء الوطن. ولقد فكرت السلطات المتعاقبة جدياً في تقطيعها كالحية هي وكهولها وشبابها ومقابرها ووضعها داخل كيس ثم قذفها إلى الجحيم.

لكن هذه القرية، استمرت في الحياة، وتجفيف الأحزان، ففي الربيع، كانت السهول غنية بالأزهار، وبشقائق النعمان التي تذكّر أهلها بجماجم الأجداد المحطّمة تحت حوافر الرومان. وبالظهور التي نكئت جراحها عاماً بعد عام بأغصان التوت التي لامست الكثير من الخوذ المنتصبة والمدلات على الصدور، إلا أنهم لم يضعوا الزهور على قبور موتاهم أبداً، ولم يسوروها كالأقفاص الخشبية كما يفعل الأمراء ذوو الدم الأزرق، بل تركوها مباحة وعارية. وحين حاول البدو في إحدى سني المجاعة والقحط غزو القرية من جهة الشرق، ثم تمزيق طلائع فرسانهم تمزيقاً، قبل أن تصل إلى الضواحي، بعد أن شطرت رؤوس أمرائهم بأطراف المعاول. ولعل هذه التقاليد البدوية التي تتحكم بتلك المنطقة هي التي أججت الثأر، وقد وجدت في عام ١٩٠٠ مئات الجثث في الكروم بسبب

دجاجة.

ما هي أول صورة تتذكرها في طفولتك ، في تلك القرية؟

ربما كان عمري خمس سنوات، وأنا أتشبث في حضن أمي، أتذكر صورة سماء شاحبة وسحب ورمال، وحين كنت في السابعة من عمري، أطلقتني أمي لأول مرة خارج باحة البيت لأرعى الخراف في ما تبقى من المروج النامية مصادفة بين المخافر. وعند الأصيل عادت الخراف، ولكن الراعي لم يعد.

في روايتك الوحيدة "الأرجوحة" ، تتذكر أمك بحنان ، على عكس علاقتك بوالدك؟

والدتي كانت امرأة قوية وصلبة، علمتها الحياة أن تعتمد على نفسها في تربية أبنائها. ولقد أصيبت ركبتها وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وأثر ذلك، ولم تعد تستطيع طيها إطلاقاً، وكانت كثيرة الحركة. وأذكر أنها زارتني في أيامها الأخيرة، هنا في دمشق، وكان عمرها يتجاوز الثمانين، لكن شعرها ظل يصل إلى أسفل ظهرها، وكان الجواهري في زيارتي، وقد أصيب بالذهول من حديثها وفهمها للحياة، حتى أنه كتب خمسة أبيات فيها، لكنني أضعت هذه الأبيات، ولا أعلم شيئاً عن مصيرها.

أما والدي فكان رجلاً مسالماً وفقيراً، قضى حياته في الحصاد، والعمل في أراضي الآخرين كأجير، وهذا ما جعل والدتي تفرض سطوتها على المنزل.

أمي كانت امرأة جميلة وشاعرية في طبعها، وتحب الزهور، لكن حنانها وحبها لنا، لم يمنعها من أن تكون صارمة، حين يتطلب الأمر. أمي أعطتني الحس الساخر، الصدق والسذاجة، رؤية العالم كحلم قابل للتحقق.

تصوّر. حين سجنت لأول مرة في "سجن المزة"، جاءت من السلمية للبحث عني والاطمئنان على

حياتي، وهي لم تزر دمشق من قبل. ركبت البوسطة وجاءت إلى دمشق.

رغم ابتعادك عن السلمية منذ نصف قرن تقريباً، إلا أنها تظل تتردد في قصائدك وكتاباتك؟

حين كتبت قصيدتي "سلمية" في أواخر الستينات، وظهرت في ديواني "الفرح ليس مهنتي"، اعتقدت أنني سددت الفاتورة تجاه مسقط رأسي، لكنني لاحقاً، اكتشفت أن هذه المدينة مقيمة في دمي، فهي التي علمتني الحزن والسوداوية:

"سلمية: الدمعةُ التي ذرفها الرومان
على أول أسير فك قيوده بأسنانه
ومات حنيناً إليها
سلمية .. الطفلة التي تعثّرت بطرف أوروبا
وهي تلهو بأقراطها الفاطمية
وشعرها الذهبي
وظلَّت جاثية وباكية منذ ذلك الحين
دميتُها في البحر
وأصابعها في الصحراء."

ولعل مشكلة السلمية، أنها تعيش على تخوم البادية، وتخوم المدينة، وتخوم الريف. كنت أراها محاطة بفوهات البراكين المطفأة، التي كانوا يقولون أنها أبراج قلاع، ولها أسماء. وما أتذكره من السلمية هو الوحل والبرد والأحلام، والغيوم والأبقار والرياح.

ثم لا تنسَ أن هذه المدينة، هُدمتْ مئة مرة، وهي معقل القرامطة والمتنبي، وعلى هذا الأساس، يمكنك اعتباري "فرويد الشيعة."

وربما، أن إحساسي المبكّر بالظلم البشري، والفوارق الاجتماعية، اكتسبته من نشأتي في هذه القرية الحائر بين الصحراء والمدينة، والمنقسمة إلى أمراء وفلاحين، وأعتقد أن ماركس، كان ينبغي أن يولد في السلمية وليس في ألمانيا، ليخترع نظريته في الصراع الطبقي.

ورغم بؤس طفولتي في هذه المدينة، إلا أنها نمَّت فيّ حس التمرد، حين تفتَّح وعيي على مقابر خاصة للأمراء ومدارس خاصة لأولادهم، فيما كنا كأبناء فلاحين لا نذهب إلى المدرسة، بل إلى "الكُتّاب."

وإلى اليوم، ما زلت أشمّ رائحة قضيب الرمان الذي أمسكه بأصابعي لأدل به على الحروف والكلمات.

كان هذا القضيب يسمى "الدّلالة"، وكان الخطيب يجمعنا تحت شجرة وارفة الظل، ليعلمنا القراءة والكتابة، وهذه الشجرة هي المدرسة الأولى التي لم أنسَ رائحتها إلى اليوم.

ومن هذا الخلل الطبقي، أتت عزة النفس والتمرد أذكر مرة، أن أتى فارس ليرمي أثناء دفن أحدهم، حنطة للفقراء، فضربته بحجر، ولا تزال آثار سوطه على جلدي إلى هذه اللحظة.

متى غادرت السلمية أول مرة؟

في سن الرابعة عشرة، كنت سأدرس الزراعة، في مدرسة "خرابو" في الغوطة، وكنت متفوقاً وفجأة أحسست أن ليس اختصاصي الحشرات الزراعية، بل الحشرات البشرية.

كان والدي كما قلت فقيراً، ووجد في هذه المدرسة حلاً لمشكلتي، لأنها مدرسة داخلية، تقدم الطعام والشراب مجاناً، ولم يستمر الأمر طويلاً، إذ هربت منها ومشيت ١٥ كيلو متر على الأقدام، ولم أكن أعرف أحداً في دمشق.

أما مغادرتي النهائية للسلمية، فكانت بين ١٩٥٥ و ١٩٥٦، عندما اعتقلت لأول مرة، وكان المكان الأول الذي أزوره خارج السلمية سجن المزة.

سجن المزة
متحف الرعب

ما سبب اعتقالك وأنت في هذه السن المبكرة ؟

كنت عضواً في الحزب السوري القومي. وحصل الأمر دون قناعة تُذكر. ربما كان الفقر سبباً في ذلك، فبالنسبة لفتى يافع وفقير مثلي، كنت بحاجة إلى انتماء ما. وكان هناك حزبان يتنافسان في السلمية، هما حزب البعث، والحزب السوري القومي، وفي طريقي للانتساب إلى أحدهما، اتضح لي أن أحدهما بعيد عن الحارة ولا يوجد في مقره مدفأة ، ولأنني كنت متجمد الأطراف من البرد، اخترت الثاني دون تردد، لأنه قريب من حارتنا وفي مقرّه مدفأة .وصراحة إلى الآن، لم أقرأ صفحتين من مبادئه، ومنذ أن انتهت موجة البرد الأولى، لم أحضر له اجتماعاً، ولم أقم بأي نشاط لصالحه على الإطلاق، باستثناء مرة واحدة كلفوني بها بجمع تبرعات من إحدى القرى التي كنت أعمل في بساتينها، فجمعت التبرعات والاشتراكات، واشتريت بها "بنطلوناً" وذاك وجه الضيف، لكنني سجنت بسببه أكثر من مرة.

ومتى غادرت الحزب نهائياً ؟

أنا بطبيعتي فوضوي، لم أنتسب بشكل واضح أو منطقي، ولم أغادر بشكل منطقي. كانت لدي حاجة ما للانتماء كوني فقيراً مسحوقاً، وكان الحزب يشكّل نوعاً من الحماية لشخص لا يملك مالاً وجاهاً. وكان الأمر يشبه التقليد الاجتماعي، لكن سرعان ما شعرت بالسأم من الخطابات والتنظير. كان إحساسي بالظلم والعار القومي، أكبر بكثير من أي منشور سياسي. فماذ يعنيني من السفن الفينيقية التي كانت تعبر المحيطات وتشق عباب الموج، وأنا لا أستطيع أن أعبر زقاقاً موحلاً طوله متران؟

إذاً كان السجن منعطفاً في حياتك؟

بالتأكيد. ففي السجن انهارت كل الأشياء الجميلة أمامي، وسقطت جماليات الحياة، ولم يبق أمامي سوى الرعب والفزع فقط لا غير. فقد فوجئت بالقسوة والرعب، وبضغوط قاسية على شخصي الضعيف، إذ لم أكن مؤهلاً آنذاك نفسياً أو جسدياً، لما تعرضت له من هوان وذل. وكان السجن المبكّر هو بداية صحوة الشباب، وبدلاً من أن أرى السماء، رأيت الحذاء، حذاء عبد الحميد السرّاج، وهذا ما أثَّر على بقية حياتي .نعم رأيت مستقبلي على نعل الشرطي، ومن خلال عرقه المتصبب فرحاً على ما يحدث من تعذيب.

والآن، حين أتذكر حفلات التعذيب وأنا في التاسعة عشرة من عمري، أتساءل : "ما هي تهمتي بالضبط؟"، ولم أجد إجابة شافية على هذا السؤال. كنت وقتها مجرد فلاح وريفي بسيط، لا يعرف من العالم إلا حدود قريته فقط، كمعرفة الرضيع للحياة. ثمة طموحات وأحلام ، لكنها كانت ضبابية، لأنني لم أكن قد اهتديت إلى الطريق بعد، لم أكن أعرف كيف أعبر عن هذه الأحلام.
ولعل من فضائل عبد الحميد السرَّاج علي، أنني تعلَّمت أشياء كثيرة في السجن، تعلمت كيف أقول "آه"، ذقت طعم العذاب. والمثير أنني أنا الذي لم أكمل تعليمي، قد تعلمت كثيراً من السجن والسوط العربي الذي بيد السجّان. السجن والسوط كانا معلمي الأول، وجامعة العذاب الأبدية التي تخرجت منها، إنساناً معذباً، خائفاً إلى الأبد.

لكن فترة سجنك لم تطل؟

السجن ليس بالأيام أو الأعوام، إنما باللحظة. صحيح أني لم أسجن طويلاً، ولكني حين سُجنت في المرة الأولى، رأيت الواقع على إيقاع نعل حذاء الشرطي الذي كان يضرب على صدري..
أحسست بشيء ما بداخلي يتكسر، ليس الضلوع، لكنه شيء عميق. وفي الزنزانة زارني الخوف وعرفني، وأقام معي صداقة لا زالت قائمة بداخلي حتى اللحظة. صار الخوف يسكنني، وهرب مني الأمان، لآخر لحظة في عمري.. الآن حين يرن جرس الباب، أشعر بالرعب، وحين يرن الهاتف، أتوجس خوفاً. فقدت حسي بالبراءة منذ تلك الفترة، وأدركت أن العالم ليس برئياً كما كنت

أتصور. كنت أرى البراءة في كل شيء حولي، ولكن بعد تجربة السجن فقدت هذا الإحساس بكل شيء: بالبشر والأحزاب والسياسيين ورجال الشرطة والشعراء.

متى سجنت؟

في العام ١٩٥٥ ، وأمضيت تسعة أشهر، وفي العام ١٩٦١ ، أمضيت ثلاثة أشهر، ولكن كما قلت لك، الزمن ليس هو المعيار. كان السجن في مخيلتي مكاناً للمجرمين: السارق والقاتل وطالب الثأر. وهذا المجرم يعرف أنه محكوم بجناية معينة وعقوبة محددة، يقضي وقته بصنع أطواق الخرز، وتنتهي القضية. أما أن تُسجن وتُهان وتُعذب بسبب فكرة، هذا ما جعلني أشعر أن شيئاً تحطّم في أعماقي غير الأضلاع، شيء أهم من العظام، لا يمكن ترميمه على الإطلاق، إذ لو أنني استعملت عكازاً لكل عضو محطّم في أعماقي لاحتجت إلى "منجرة" قرب بيتي.

ولكنك صمدت ولم تعترف بأي تهمة موجهة لك؟

لم أصمد من أجل الحزب القومي السوري، ولكن لأن طبعي عنيد، كنت أول من يبكي ويصرخ أثناء التحقيق.
أنا إنسان مذعور لا أخاف السجن فقط، ولكن أشمئز منه.

في السجن ، تعرفت على أدونيس؟

نعم، لكننا كنا في زنزانتين منفصلتين، وكنت أراه من بعيد.

وفي السجن تعلمت التدخين؟

لا .. كنت أدخّن قبل أن أدخل السجن، لكن بشكل معتدل، خمس لفافات في اليوم تقريباً. في السجن كان التدخين ممنوعاً، وكان ثمن اللفافة يصل إلى ثلاث ليرات سورية تقريباً، وهو مبلغ خطير آنذاك.

الحصول على لفافة، كان معجزة، أكثر من سجين يتناوب على لفافة واحدة مبللة باللعاب، وعندما تتضاءل، كان يُغرس في مؤخرتها دبوس حتى لا تحرق الشفاه المرتجفة حولها.

كنت أدخّن .. "الطاطلي سرت" و "البافرا"، وعلي ورق" البافرا" كتبت مذكراتي في السجن وهرّبتها في ثيابي الداخلية، واكتشفت لاحقاً أن ما كتبته كان شعراً. قصيدة "القتل" كتبتها في السجن ونشرتها كما هي.

بداياتي الأدبية الحقيقية، كانت في السجن. معظم الأشياء التي أحبها أو أشتهيها، وأحلم بها، رأيتها من وراء القضبان: المرأة ، الحرية، الأفق.

والخوف؟

إنه الشيء الوحيد الذي أملكه من المحيط إلى الخليج، ولدي في أعماقي "احتياطياً" من الخوف، أكثر مما عند السعودية وفنزويلا من احتياطي النفط.

وإلى متى ستظل مأسوراً لثنائية العصفور والقفص؟

إلى آخر شهقة في حياتي. أنا أحمل السجن على ظهري ، تماماً مثل ماكيت مجسّم.

هل كنت تقرأ في السجن؟

نعم. قرأت أكثر من خمس وعشرين ألف صفحة. كانت سنية صالح وزكريا تامر، يزوداني بالكتب.

بعد إغلاق سجن المزة، ألا تتمنى زيارته؟

لا أبداً، لأنني ما زلت أعيش الرعب نفسه.

قبل دخولك السجن، هل كنت بهذه الروح الصدامية؟

بذور التمرد لدي كانت موجودة، ولكنني لم أكن صدامياً، كنت أسير العزلة، وأرى أن أجمل أيامي كانت، حين عشت مع البدو في الصحراء، أرعى الماشية .لم أكن أشعر بالغربة، كما شعرت بها بعد تجربة السجن. كنت أحب شعر جبران خليل جبران ورومنسيته. وقتها كان القلب أخضر، لا يعي غير الحلم التائه في القرى والضال عن خريطة "السلمية". وفي الزنزانة، عرفت الخوف لأول مرة. وانطبعت روحي بوشم التوجس من العالم، وهرب مني الأمان وربما إلى الأبد.

هل تتصور ، أنني إلى اليوم ، عندما تجمعني الظروف بـــ "كبراء القوم"، لا أستطيع حتى أن أبلع اللقمة في حضورهم .يضحكون معي ويجاملونني بقولهم: "صرت أهم من الحكام وأكثر شهرة"، لكنني لا أصدقهم .أشعر أن في الأمر مكيدة ما.

أتحدى أي إنسان، دخل السجن ولو يوماً واحداً ، أن ينساه أبداً. نحن جيل رضع الإرهاب السياسي. ولم يُفطم على أي حليب آخر، لذلك تراني مسكوناً بالذعر وأي شيء يخيفني، حتى لو كان مجرد فاتورة كهرباء. فحين يصبح للإنسان قضية، لا بد أن تتبعها "إضبارة أمنية."

السجن صنع منك كاتباً؟

نعم. أول حرف متوهج كتبته، كان في ظلام السجن البارد، في منتصف الخمسينات.

لم أكن أملك أجرة التاكسي
لأذهب إلى "مجلة شعر"
فجاءت هي إلي

هل تذكر أول قصيدة كتبتها؟

أذكر أول قصيدة نشرتها. كانت بعنوان "غادة يافا"، وقد نشرت في مجلة "الآداب" البيروتية. ولأن هذه المجلة لم تنشر لأحد إلا إذا كان اسمه مسبوقاً بلقب كبير، فإنني استعرت لقب دكتور ووضعته أمام اسمي، رغم أنني لم أحصل إلا على الشهادة الابتدائية فقط، من مدرسة داخلية. وحين نُشرت القصيدة على صفحات" الآداب" صعق مأمور البلدية، وهو شاعر أيضاً، إذ أنه منذ سنوات، كان يرسل قصائده إلى المجلة، دون أن تنشر له بيتاً واحداً. ولما سأل عمن يكون "الدكتور محمد الماغوط" ، قال له وجهاء البلدة، إنه: "لا دكتور ولا من يحزنون"، بل هو مجرد فلاح تشققت كعوب قدميه من العمل بالأرض، فازداد الرجل عجباً واستغراباً.

قلت مرة، إن السجن صنع منك شاعراً، حين كتبت قصيدة "القتل"؟

حين كتبت قصيدتي هذه ، لم أكن أعلم أنها" شعر". كنت أكتب معاناتي في السجن فقط لا غير، وظللت أكتب وأكتب على أساس أن ما أكتبه مجرد مذكرات سجين يتعذب، ويتألم ، ويتأوه فقط، وليست قصيدة على الإطلاق، وقد كتبتها على ورق التبغ وهرّبتها خارج السجن، ولكن حين قرأها

أدونيس، قال: "هذا شعر ."فقلت: هل أنت متأكد مما تقول؟ قال: نعم.

وفي إحدى جلسات مجلة "شعر"، قرأ أدونيس قصيدتي، بحضور يوسف الخال، وأنسي الحاج، والرحابنة، دون أن يعلن عن اسمي، وترك المستمعين يتخبطون (بودلير؟.. رامبو؟)، لكن أدونيس لم يلبث أن أشار إلي، قال" :هذا هو الشاعر."

لماذا ذهبت إلى بيروت وقتها؟

كنت مطلوباً في دمشق، في فترة الوحدة بين سورية ومصر.

وما الذي أثار جماعة شعر في قصيدتك؟

وقتها كان الشعر العربي غارقاً في متاهات جدلية عن الوجود والعدم، وألغاز تفصلها مائة سنة ضوئية عمّا يدور على الأرض، أما أنا فكنت غاضباً، وجائعاً، أتحدث عن "قمل" السجن، والقدم الحجرية للسجّان على قلبي، وعن التوابيت وساحات الإعدام، وشفاه غليظة لرجال قساة، وعن الحلم الذي انطفأ ، وابتساماتنا وأهدابنا قاتمة.

وكما قالوا لي وقتها: "لقد خرجت بالعشر من صومعته إلى المقهى."

كيف تنظر إلى دور مجلة "شعر" في تطور الشعر العربي؟

في الخمسينات كنا مجموعة من الغجر الحفاة فكرياً وسياسياً وعاطفياً، وبدلاً من أن نحمل خيامنا على ظهورنا، كنا نحمل قصائدنا، ونتلفت ضالين شرقاً وغرباً في ساحة البرج في بيروت أو ساحة الفكر العربي، فجاء يوسف الخال ونصب لنا خيمة سميت فيما بعد مجلة "شعر"، وكان أول من مزّق وحطم عطاءاتها هم الذين آوتهم. إنها ككل بداية ثورية أو فكرة أصيلة، ما أن تأخذ

طريقها في النمو حتى تنقض عليها آلاف الأفكار المزيّفة والبدايات المختلة لتأخذ مكانها باسم الشعارات الثورية.

أنت أتيت إلى "شعر" حاملاً قصائد التشرد والرفض، وكنت مع آخرين، من الأوائل الذين حاولوا كسر اللغة التقليدية، إلى أي مدى، دفعت مجلة "شعر" هذا الاتجاه الحديث في شعرك؟

عندما هاجرت من دمشق إلى بيروت، في فترة الخمسينات من القرن العشرين، أنا لم أذهب إلى مجلة "شعر" بل مجلة "شعر" جاءت إلي، لا لأسباب ثقافية أو مذهبية، وإنما لسبب بسيط جداً، هو أنني لم أكن أملك أجرة التاكسي أو السرفيس لأذهب إلى "رأس بيروت"، حيث مقر المجلة، وعندما انحلت مشكلة المواصلات هذه، وبدأت أكتب أو أقرأ ما أكتب، لم يكن يهمني أو يعنيني اللغة التي أكتب، أو الأسلوب الذي ألتزم به، أو المجلة التي سأنشر على صفحاتها، أو القارئ أو الناقد، كنت متألماً ومطارداً، ولجأت إلى الشعر، كما يلجأ الإنسان البدائي إلى جذع شجرة هرباً من الوحوش التي تطارده، بصرف النظر عن نوع الشجرة أو فصيلتها. وما كان يهمني هو أن أعقد مؤتمراً لكل الجياع، وكل مشردي ومضطهدي الوطن العربي وألقي عليهم قصيدة. ولكن لأن الجوع لم ينته وكذلك الإرهاب وكذلك التشرد، تابعت الكتابة، وأعتقد أنني سأتابعها حتى في قبري دون جدوى. ومجلة" شعر" كانت هي المنبر المصغّر أو الوسيلة التي حققت لي تلك الأمنية في إيصال صوتي إلى الآخرين بصدق ودون أي مكر سياسي.

وكيف سارت علاقتك بعد ذلك مع جماعة "شعر"؟

لم أكن أتكلم في اللقاءات التي كانت تتم أغلب الأحيان في بيت يوسف الخال. كنت أسمع أحاديث عن شعراء وأسماء لا أعرفها" عزرا باوند" و "أليوت" و "سوزان برنار". فأنا لا أجيد لغة غير العربية. كنت أصمت خلال الحوارات والنقاشات، وعندما يحضر الطعام آكل. كان يوسف الخال وزوجته الأمريكية يعدّان الطعام لأسبوع كامل، على الطريقة الأمريكية، وفي إحدى المرات قلت لم نُبقِ أنا وفؤاد على شيء في البراد سوى الماركة.

هل تعني أن هواجس "التجاوز" و "الحداثة" لم تكن تتملكك؟

كل ما هنالك، أنني، بطبيعتي، أحب أن تنجز الأشياء بسرعة، أن أحب، أن أكره، أسافر، أعود ، أنام، أستيقظ بسرعة. كان لدي تجارب محرقة، وعندي هموم تفور من قمة رأسي كالبركان. كنت غريقاً ولم يكن عندي وقت لاختيار أو انتقاء صنف وطول ومنبت الخشبة التي ستنقذني. وما كنت أكتبه لم أكن مهموماً بهويته أو بتصنيفه. كنت أكتب فقط لأنجو، وكذلك كنت ولا أزال، لا تعنيني التسمية التي تطلق على ما أكتب، شعراً أم نثراً أم نحتاً أم رقصاً.

ما يعنيني أن أكتب بصدق في عصر الكذب السابق واللاحق. وأكتب بشجاعة في عصر الذعر السابق واللاحق. ومعركتي ليست وراء مكتب أو في حلقة نقاد أو وراء ميكرفون، معركتي في الحياة، ولا أظن أن كثيراً من أساطين التجاوز والتخطي قد عبروها أو عرفوا شيئاً عنها منذ أن تخلوا عنها. ليس معنى هذا أنني شجاع بالمعنى الشعبي، فكثيراً من القصائد أو الزوايا الصحفية، أرسلها إلى النشر من هنا، وأنام تحت السرير وقلبي يدق حتى يلامس بلاط الغرفة، ريثما تُنشر وأعرف ردود فعلها.

أفهم أنك لا تفصل الشعر عن التجربة الأصيلة؟

طبعاً. وإلا لماذا يسمّى هذا نجاراً، وهذا شاعراً وهذا خياطاً وهذا مسرحياً؟ وبسبب هذه الازدواجية لم يعد لدي صديق في الوسط الأدبي إلا القليل.

لماذا اختلفت مع "جماعة شعر"؟

أنا مكشوف مثل سهل البقاع أو الزبداني، لا توجد عندي حسابات أو مواقف معلنة مبطنة. إذا رأيت خطأ ما، لا أستطيع أن أتغاضى عنه، بل أقوله حتى لو كان فيه "خراب بيتي."

ويبدو أن تلك المرحلة، كانت بداية لستر العيوب والأخطاء وتبريرها، كنت أشعر أن مهمتي كإنسان وليس ككاتب أن أفضحها. ومن هنا كانوا يقولون أنني جريء، أنا لست جريئاً ولكني صادق مع نفسي. لا أستطيع أن أكون جباناً قبل الظهر، وشجاعاً بعد الظهر، يسارياً عند العصر، ويمينياً عندما يهبط الليل، ناصرياً في الربيع وشيوعياً في الشتاء. كنت أنا نفسي في جميع الفصول والأوقات والأزمات، ولم أتغير أبداً.

كان جماعة "شعر" يكتبون في المطلق، وأنا حاولت أن أسحبهم إلى الأرض بكل ما فيها من أرصفة وتشرد وحطام، وأرغمهم أن يعودوا من الفضاء إلى الأرض .لكنني بقيت طارئاً، مثل ضيف على طرف المائدة وافترقنا، لأنني شاعر أزقة ولست شاعر قصور. قبل ذلك علمتهم التسكع في الطرقات وتحت المطر. أنا فتحت ثغرة في جدار أصم .

بعد أن تأكد حضورك الشعري، هل تغيرت نظرة "جماعة شعر" إلى منجزك؟

البعض منهم قال: إن محمد الماغوط ظاهرة عرضية سرعان ما ستزول. قالوا أيضاً إنه بدوي فلاح، سيغني بضعة مواويل وينتهي أمره.
أتذكر أن واحداً منهم قال العكس، ولم أعرف من هو إلى اليوم، لأني كنت جالساً في غرفة أخرى.

ولهذا السبب أعلنت تمردك عليهم؟

لم أجد نفسي في خيمة التنظيرات. أردت أن أبقى وفياً لتجربتي كما هي، ووفياً لأسلوبي الذي كتبت به قصائدي الأولى، إذ لم أكن مهتماً بالشكل بل بالإحساس القادم من تجربة ما، ومعاناة ما، فليس في شعري رموز أو أسطورة، ولا أعتمد على تراث بعينه، فقط أعتمد على الصدق والبساطة. كنت دائماً "على باب الله" ، لم أتغير أو أتلون مع أي ريح قادمة، أو أية موجة إطلاقاً، إنني مثل شعري، لم يتغير ولم يتبدل.

وكانت مشكلة "نخبة مجلة شعر" في استغراقهم بتحطيم السفينة، دون أن يفكروا بالغرق المؤكد. قل لأحدهم ثلاث مرات "المتنبي"... يسقط مغمى عليه .. بينما قل له وعلى مسافة كيلو متر "جاك بريفير".. فينتصب ويقفز عدة أمتار عن الأرض كأنه شرب حليب السباع. إن الذي خلق هذا الشعور وغذاه هم جماعة مجلة "شعر" أنفسهم. العلة ليست أبداً في التراث بقدر ما هي في النفوس ، في نفوسهم هم، بارزة بكل وضوح في أشعارهم وأحاديثهم وسكسوكاتهم.

ما هو الصدى الذي تركته مجموعتك الشعرية الأولى "حزن في ضوء القمر"؟

أُتهمت وقتها بأنني هدّام، وسوداوي ومتشائم، وضد المرحلة البهيجة التي تنتظرها الأجيال المقبلة ..وأعتقد أنه بعد هذا الزمن الطويل من البهجة، صار الشاعر مضطراً أن ينوح، وأن يبدل هويته إلى غراب.

ما هو مفهومك للشعر؟

الشعر نوع من الحيوان البري. الوزن والقافية والتفعيلة تدجنه، وأنا رفضت تدجين الشعر، تركته كما هو حراً، ولذلك يخافه البعض. وأعتقد أن "قصيدة النثر" هي أول بادرة حنان وتواضع في مضمار الشعر العربي الذي كان قائماً على القسوة والغطرسة اللفظية، كما أن هذه القصيدة مرنة، وتستوعب التجارب المعاصرة بكل غزارتها وتعقيداتها، كما أنها تضع الشاعر وجهاً لوجه أمام التجربة وتضطره إلى مواجهة الأشياء دون لف وراء البحور، أو دوران على القوافي. ليس لدي خلق لأبحث عن قافية وبيت. ووقتها كنت مهموماً في البحث عن بيت أنام فيه، بدلاً من تشردي على الأرصفة، ربما كتبت قصيدتي من باب ضيق الخلق لا أكثر.

أنت تعتبر أن قصيدة النثر التي تكتبها خياراً بالدرجة الأولى؟

أنا لا أجيد التنظير مثل أدونيس، ولست خبيراً زراعياً، كي أقول ما نوع هذه الشتلة، وكم تحتاج

من أسمدة كي تحيا. لكن ما أعرفه أن قصيدة النثر جاءت كضرورة صحية لإلغاء دكتاتورية الشعر الكلاسيكي، إنها أشبه بعملية بتر لكل الأطراف والزوائد المعيقة لاندفاع التجربة كي تتخذ إطارها الواضح والمختلف. وهي تسعى في تجاربها الأصيلة كي تصل إلى الصدارة دون زكاة من رأسماليي الأوزان والقوافي، باعتبارها رؤية جديدة للعالم وسط زحام الاعتبارات الشاحبة وتقاليد الطرب ورقص الكلمات.

وإذا كانت حتى الآن، تعتبر بنظر الكلاسيكيين المتزمتين قرصنة فوق بحور الشعر فيكفيها ، أنها تجاوزت مرحلة التيمم بكثير.

قد توافق هذه الأراء تجربتك المتفردة، ولكنها لا توافق تجارب أخرى في قصيدة النثر؟

أنا أنطلق من تجربتي طبعاً. وهي ككل واحدة لم تتغير، ولكنها من الضخامة والاتساع بحيث لا أشعر بأنني قد استنفدتها.
إنها ليست تجربة شخصية بقدر ما هي عامة وكاسحة، فالجوع والرعب والعبودية، والضجر والأمل، هي العالم الذي رأيت من خلاله بداياتي الأولى. وبعد مرور هذا الزمن الطويل، أنظر إلى العالم فلا أستطيع رؤيته إلا من خلال الجوع، والرعب، والعبودية، والضجر، باستثناء صديقي القديم ورفيق الأيام والسنين الطويلة.. الأمل. وربما سأتخلى عنه أيضاً أمام طغيان حالة اليأس الشاملة.

أنا يائس من الحرية والحب والمستقبل، ولكني ما شعرت يوماً بيأس من الشعر. وما كنت مفتشاً عن هويته.

ولكن "جماعة شعر"، كانوا وقتها منهمكين بالهواجس التنظيرية لمشروع الحداثة الشعرية.

أنا لست ناطقاً رسمياً باسم جماعة "شعر" فهي كانت قطاراً أقلَّ مجموعة من الشعراء الذي يشتركون في الهموم الحياتية وفي الهواجس الإبداعية والذين أسسوا التوجهات الجديدة في الكتابة

الشعرية العربية، وقد توقف هذا القطار، وذهب المسافرون كل في سبيله. وأعتقد أن من يتحدث كثيراً، يفعل قليلاً! وفي الشعر خاصة ، فإن من يتحدث كثيراً عن الشعر يكتب قليلاً من الشعر، وأنا أكتب كثيراً ولكنني أتحدث قليلاً، وقد قال مرة الشاعر أنسي الحاج، أنني وإياه كنا أكثرنا صمتاً في جلسات مجلة شعر، كنا نستمع ونصغي لما يقال، ولكنني كنت أكثر المستمعين رفضاً لما يقال. كنت أخرج من جلسات مجلة شعر نافضاً كل الكلام الذي قيل لأذهب إلى شوارعي وإلى مقهاي وإلى معاناتي الشخصية، لأكتب كما قدر لي أن أكتب، وإلى الآن فإنني لا أعرف أن أتحدث عن الشعر مثلما أكتب الشعر، ولا أتقن الحديث عن المسرح مثلما أكتب المسرح .قلت لك: أنا لا أحب التنظير ولا أجيده ، ولا أحب ثقافة المطارات، وحتى عندما أريد أن أتحدث فإنني قد أناقض نفسي بين لحظة وأخرى. إنني أكره التصنيفات والأحكام والنعوت ، وأحاول أن أكون شاعراً في القصيدة وخارجها، لأن الشعر موقف من الحياة، وإحساس ينساب في سلوكنا، وهذا ما حاولت تجسيده. وقد عبرت بكل ما أوتيت من صدق وإخلاص عن ترجبتي سواء أكانت جزءاً من الحداثة أم لا. لأنني كنت على الدوام أكتب أنيني ووجعي، ولم يجرفني التيار كشاعر وإنسان. بدأت وحيداً ، وانتهيت وحيداً. كتبت كإنسان جريح وليس كصاحب تيار أو مدرسة.

نقاد الحداثة الشعرية اعتبروك رائد قصيدة النثر ومكتشفاً لقارة الشعر الحديث؟

لا يهمني هذا الأمر إطلاقاً . عندما بدأت الكتابة بهذا الأسلوب، لم أكن أعرف أنني أؤسس شيئاً أو أهدم لغة أخرى. لكنني اكتشفت بعد سنوات ومن خلال أقوال النقاد والشعراء ومن بينهم نزار قباني وأدونيس، أنني وأنسي الحاج، أول من حاول تأسيس شيء جديد. طبعاً فرحت وقتها، لكن فرحي لم يطل، إذ علمت ، من بعض النقاد أيضاً ، أن ما أسسناه، قد سكنه غيرنا من الشعراء، فهنيئاً لهم هذا الاحتلال المؤقت.

الآن، حين تنظر إلى تجربة شعراء الستينات، كشاعر رائد في هذه التجربة، كيف تقيّمها؟

كما ينظر الرجل الوحيد إلى صورة عائلية قديمة، تآكلت أطرافه او غطى الغبار ملامحها. صورة حقيقية ولكنها شوهت نتيجة أخطر مونتاج سياسي عرفه الإبداع العربي: الفم أصبح مكان الأذن،

والأذن مكان الفم، والعين محل الحاجب، والإطار مكان الجميع.

وأنا لا أدعي لنفسي الريادة في أي شيء، ولست سبّاقاً أو طموحاً في الوصول إلى الباص أو البيت أو المقهى. وليس هناك ما يشرّف بالادعاء أنني حققت شيئاً أو أضفت شيئاً إلى الشعر العربي الحديث .وبالمقابل أرفض أي شاعر آخر، سيخدعني بالقوافي المضللة، وسأتركه تحت قدمّي، وأتابع طريقي في كتابة الشعر عن فضح المأساة المروعة بين الإنسان والحرية.

كمال خير بيك، قال أن قصيدة النثر بدأت مع محمد الماغوط، وليس مع أدونيس و يوسف الخال وأنسي الحاج...

هذا يعني أنه لا زال في هذا العالم من يقول الحقيقة. وأن الوفاء ممكن والحرية ممكنة .وأن أيام الجوع والرعب والنوم في علب القمامة أمام قصور بيروت لم تذهب سدى. لكنني لا أرغب بعداوات جديدة، لأنني صرت في الحركة الشعرية العربية، وفي قصيدة النثر بالذات، مثل تروتسكي في الحركة الشيوعية. ولا أريد بلطة على رأسي في آخر العمر.

قلت مرة: "أن الشعر القديم نصفه شعر ونصفه الآخر غوغاء" فماذا تعني بعبارة "نصف الشعر"؟

الشعر الكلاسيكي هو نصف الشعر، لأنه شعر قيلولة ومناسبات وتتويج هذا وخلع ذاك.

وهذه ليست قضيتي أبداً. حتى لو كتب شكسبير قصيدة في تتويج ملك فلن أقرأها، ولكن لو كتب أحد الخدم في ذلك الاحتفال لقرأته بشغف.

الشعر الكلاسيكي مهما قيل فيه ورغم احترامي اتراثه وعائلته العريقة وحسبه ونسبه، فإنه ما يزال شعر طرب واستجداء وتصفيق.

هل تنفي الأصالة عن هذا الشعر؟

ما من شاعر أصيل معاد لشاعر أصيل آخر ولو كان كل منهما في قارة. الخائن لقضية الإنسان هو الذي يقبض ثمن ما، لأن الشعر قضية أخلاقية قبل كل شيء، لذلك لا يمكن أن يوجد شاعر عبر التاريخ معاد لقضية الإنسان.

وحين أنفي الأصالة عن الشعر الكلاسيكي، فلا أقصد المتنبي مثلاً، بل أولئك النظّامين ، مرتزقة الشعر، ومطربي المنابر .

وأرى أنه كما يوجد عمال موسميون، يوجد شعراء موسميون. مع ملاحظة أن الموسم الزراعي لا يتعدى شهراً أو شهرين، أما مواسم هؤلاء فقد تستمر لسنوات، طالما هناك ميكرفونات وأسلاك كهربائية تغذيها.

ويمكنني تشبيه العلاقة بين هؤلاء الشعراء والجمهور بعلاقة دب هائج بعش من الفراخ الأرضية .
والشاعر الأصيل هو الذي يحمي هذه الفراخ من الأقدام العمياء.
أنا أمقت هذا النوع من الشهر "السياسي" لأنه مجرد بيانات سياسية وبلاغات مشتركة موزونة ومقفاة، وللتدليل على عقمها وعدم جدواها، ما آلت إليه قضية فلسطين التي لم ينلها من السياسة بقدر ما نالها من الشعر.

ما رأيك بالمقولات التي تتهم قصيدة النثر بأنها تهدف إلى هدم التراث الشعري العربي؟

إذا كانت قصيدة النثر بروداها الأصليين ، وليس الدخلاء، تهدم التراث فبورك بها وطوبى لها وعليها! ومن ينزع عنها صفة الشعر، لا يختلف عن "بوكاسا" عندما ينزع الأوسمة عن صدر نابليون ويعلقها على صدره.

حين كتبت قصائدك الأولى، كان مجايلوك يكتبون ألغازاً ، من أين جئت بالبساطة؟.

أنا أكره الفكر والرموز والحواجز. إنني أحب أن أطلق الأشياء كالصرخة أو الطعنة، وما من طعنة تصيب هدفها، إذا جاءت إلي متعرجة الطريق أو مترددة. ولدي قناعة قديمة هي أنه لا يمكنك أن تصيب أي هدف، ويدك ترتجف، كما أنني لا أستطيع أن ألون آلامي بتؤدة كبيض عيد الفصح.

هل تتابع تجارب الشعراء الجدد ممن يكتبون قصيدة النثر؟

لست متابعاً . ولكني أعتقد أنه بعد حقبة الخمسينات، لم يظهر شاعر مهم، فنحن في هذه الأيام، لسنا بحاجة إلى كاسحات ألغام ، بل بحاجة إلى كاسحات شعر، فقد تراكم الشعر الرديء، وقلّ الجيد منه. وأكاد لا أعرف عنهم ، أكثر مما أعرف عن شعراء بنغلادش إنهم أوركسترا من الضفادع تنق دوياً، لإثبات الوجود ويديرها مايسترو واحد اسمه الحذاء.
لقد أصبحوا أكثر عدداً من سائقي باصات الكرنك، وأقترح أن يفتتح اتحاد الكتاب العرب مرآباً لهم.

أعتقد أنك كتبت الشعر كي تدافع عن نفسك، أكثر مما كنت مهموماً بالحداثة والتجديد والريادة؟

أنا إنسان محاط بالرعب، خائف من الإرهاب، خائف من المستقبل، وقد لجأت إلى الشعر كما الإنسان البدائي المطارد، يلجأ إلى جذع شجرة. أنا شاعر ومساوئ الحياة. الشعر خطر، هو محرّض وكاشف. والشاعر مستهدف، وعندما أكون مطارداً ومحاصراً، عندما أكون ملتصقاً بجذع الشجرة التي تضربها الفؤوس، لا أستطيع، وليس لدي الوقت لأبحث عن بحور الشعر وأنقّب عن القوافي . مهمة الشاعر هي الدفاع .والشخص المهدد لا يهمه نوع السلاح الذي يدافع به عن نفسه.

ما هي رؤيتك الشخصية لصورة الشاعر القديم؟

أعتقد أننا كأحفاد بائسين، لا بد أن يكون لنا أجداد أكثر بؤساً . أجداد لا يتزينون بالذهب والحرير، ولا ينعمون دائماً بالهدايا والنعم التي طالما سمعت عنها، تنفق على هذا الشاعر أو ذاك.

لا بد أن يكون هناك شعراء قد عانوا لسع السياط، وعانوا النبذ، والنفي، والقتل، كما يحدث في عصرنا تماماً، ولكن من المؤسف أن الجثث لا تتكلم.

ثمة شاعر مبدع، لم يرقَ شعره المأمون فجعل الفيّلة ترقص على جسده حتى تمزّق ألف قطعة.

لعلك من أكثر الشعراء ممارسة للغربة والتشرد والخوف، فماذا أعطتك هذه التجربة؟

ماذا أعطتني؟ لقد سلبتني كل شيء.!

ولكن زمن التسكع والتشرد والسجن قد انتهى!

إذا كنت تعتقد بأن الجلوس إلى مكتب أو مائدة، ثم الاضطجاع على سرير أو في المقهى هو استقرار اطمئنان، فأنت مخطئ. هذه " الامتيازات" إن هي إلا عتبة ، نحو دهليز الفراغ الرهيب. إن إرتداء أفخر الثياب ، وتناول وجبة طعام ومضاجعة امرأة، أشهى امرأة، لا تستغرق، إذا راعينا عصر السرعة أكثر من ساعتين في اليوم .فماذا أفعل بالاثنتين والعشرين ساعة المتبقية؟ هل أضعها في البنك؟

إنني مثل السجين الذي ظل يحفر نفقاً في زنزانته لمدة عشرين عاماً، ثم اكتشف أن النفق الذي حفره ، يقوده إلى زنزانة أخرى.

إلى أي حد تمكن الشعر الحديث، استيعاب هموم الجيل المعاصر، والتعبير عنها؟

بالقدر الذي تستوعب فيه النملة بيدراً بمفردها، لماذا؟ لأن رفاق الدرب وسفراء كثيرون خانوا الأمانة وتخلوا عن كل شيء تحت ستار كثيف من الكلمات الجوفاء والشعارات المضللة.

أما ما يتردد عن التجاوز والتخطي فهي مجرد شعارات تتردد مثلها مثل بعض المعزوفات السياسية التي تتردد منذ النكبة هنا أو هناك. والمشكلة أنه كلما ازداد عدد الشعراء، ازدادت هموم هذا الجيل، وإلا فلماذا إذن يزداد الفقر واليأس والضجر والريبة.

إن الذي استوعب هذا الجيل بهومه وأحلامه بصدق وإخلاص، ليس الشعراء أو الأنظمة، بل هي الخمَّارات والسجون والمنافي.

ندرة المبدعين الجدد وندرة الأصوات النافرة، ما تعليلك لمثل هذه الأزمة، هل السبب ضيق مساحة حرية التعبير؟

المبدع الحقيقي والأصيل بإمكانه أ، يكتب في أي ظرف من الظروف، تحت القبل أو تحت السياط. أنا أشعر منذ بدايتي في الخمسينيات، أني أكتب من تحت النعال. من تحت حذاء ما: سياسي أو اقتصادي أو إيديولوجي أو عاطفي. والمشكلة في العالم العربي، أن عدد الأحذية لا ينتهي والطرقات لا تنتهي. ولا أجد أي مبرر كي يصمت المبدع، لأن عليه أن يعبّر بطريقة ما، وبأسلوب ما عما يعانيه. وأنا أشعر بالموت إذا لم أكتب باستمرار. أين؟ لا يهم. المهم الطائر والأغنية وليس المهم المكان الذي يغنّي فيه الطائر.

في كتابك "سيّاف الزهور"، تمزج الشعر بالنثر، السيرة بالمتخيل؟

أنا ضد تصنيف الكتابة إلى أنواع ومدارس، لذلك فإنني أكتب نصوصاً تشبهني، وأعتبر على الدوام، أن الشعر موجود في كل مكان، فهو مثل الذهب الخام في أعماق الأرض. لا أريد غربلته ووضعه في خانة ضيقة، بل أترك الأمر للقارئ.

هناك مقالات نشرتها منذ ثلاثة عقود، وما تزال طازجة إلى اليوم، وأكبر دليل على ذلك، ما هو منشور في كتابي "سأخون وطني" إذ صدر منه هذا العام (٢٠٠٢) الطبعة الثالثة، وهناك من يسألني عن قصائد قديمة، أنا نفسي نسيتها.

وحين كتبت مسرحية "العصفور الأحدب" كانت على أساس أنها قصيدة طويلة، لكن حين قرأتها سنية صالح، قالت: هذه مسرحية، فسألتها ما هي شروط المسرحية، قالت أن تكون على فصول، قلت: كم فصلاً أحتاج. أجابت : أربعة ، فجلست وكتبت الفصل الرابع وأنهيتها. كل ما أكتبه شعر. حتى لو كان نصاً مسرحياً أو مقالاً أو زاوية صحفية .الفرق هو أن الشعر يفرض نوعاً من التهذيب واللباقة اللغوية، لا أستطيع تحمّله مدة طويلة، لذا ألجأ إلى المسرح أو الصحافة، لأتحرر قليلاً من هذه القواعد. أرغب أن ألغي المسافة بين ما هو شعر وما ليس شعراً. الموسيقى في أشعاري موجودة في متن النص .وعلاقة الكلمات بعضها ببعض كالحب الحرام، أي حركة تُفسّر على نحو ما. وأرى أن كل كلمة في اللغة العربية هي كلمة شعرية، حتى الجيفة والقمل والبراز. المهم أن تجد مكانها الملائم في النص.

لذلك تراني في كل قطعة أكتبها، أبيّضها عشرات المرات قبل النشر، مدققاً في كل حرف أو نقطة أو إشارة تعجّب. في بعض الأحيان، أبقى يومين أسأل نفسي أيهما أفضل وأقوى وأصح في هذه الجملة : "الباء" أم " الــ" في."

ترعبني الورقة البيضاء، وكأنني أمام سيبيريا من الجليد.

وكيف تقبض على الجملة الأولى مُتَلبّسة ؟

إذا اعتبرنا القصيدة أو التجربة الشعرية بيتاً ، فأنا لا أقرع بابها، بل هي التي تقرع بابي. ليس لي عالم منظم في كتابة الشعر، إنها فوضى أشبه ما تكون بمعركة خيول في الغبار. رويداً رويداً تنجلي المعركة، ودائماً يكون الصدق هو بوابة قصيدتي وخاتمتها. فأنا لا أكتب إذا لم أكن مثخناً بالجراح، وأنا لا أنتظر ثواباً على ما أكتب، بل عقاباً، فما من موهبة في العالم العربي، في الشعر أو سواه، تمرُّ دون عقاب.

لكنك وجدت من يقدّر موهبتك كشاعر؟

أنا ممتن لذلك طبعاً. فماذا يريد الشاعر أكثر من ذلك؟ كل ما يريده هو أن يُترك ودفاتره بسلام.

وشهرتك واسعة، تصل إلى حد النجومية؟

كل من يقول لك أنه لا يحب الشهرة والأضواء هو كاذب، لكن المشكلة بالنسبة لي على غير هذا النحو، نتيجة قناعة خاصة، فالأضواء في معظم أنحاء العالم، وجدت لتكشف إلا عندنا، في الحياة الأدبية على الأقل، فقد وجدت لتستر وتخفي الحقائق، ناهيك عن أنني منذ أن سُلطت الأضواء على وجهي لأول مرة في استديوهات عبد الحميد السراج وغرف التحقيق، وأنا أكره الأضواء، وأكره أديسون الذي اخترع الكهرباء.

تبدو شديد الحساسية تجاه اللغة العربية، ما هي مرجعياتك الأولى، وكيف تشكّلت لديك كل هذه الذخيرة من المفردات النافرة؟

مرجعيتي الأولى في اللغة العربية هي القرآن الكريم، فقد قرأته باكراً. وإلى الآن، ما إن أحس بخطأ لغوي ما أو إيقاعي، ثمة جرس يرن في ذاكرتي، ينبهني إلى خطأي، وإلى الآن أتذكر رائحة صفحات القرآن العتيقة وكيسه القماشي. أنا رجل يعشق اللغة العربية، وأحب واو العطف وكاف التشبيه، أكثر من أي قاموس أجنبي. ربما لو كنت مثقفاً وتعلّمت لغات أجنبية لكتبت طلاسم مثل أدونيس.

اللغة العربية ليست مشروع إصلاح أراضٍ ، والتنظير للغة والشعر هو هروب من الشعر. المهم الصورة المبتكرة التي يأتي بها الشعر، وإذا كانت اللغة المستعملة قديمة، لا يجوز على الإطلاق تحميلها مسؤولية تردي الشعر، لأن ذلك يذكَرني بالجبان الذي يبرر هزيمته بأن سيفه ليس بقاطع أو أن حصانه بطيء.

وأكثر ما يضحكني في هذا السياق، ذلك الاهتمام بأساليب الكتابة ، كالقصيدة المستطيلة أو المربعة أو المدورة. هذه الأساليب والأشكال تشبه طمر أو تمويه جثة ما بالزهور المنسّقة.

أبرز مرايا شخصيتك في الكتابة، هي الكوميديا السوداء والهجاء، كيف تكوّنت ملامح هذه العناصر في تجربتك، ومن أي مشتل نبعت هذه المرارة؟

من البيئة التي نشأت فيها . من أمي، من مفارقات حياتي ، من الشارع. عادة ما يقال لكل كاتب جذور يستمد منها كتاباته وابداعاته، أما أنا فلا توجد لدي مراجع على الإطلاق، مرجعي الأول والوحيد هو طفولتي فقط لا غير، وهي من أصدق المراجع.

مرة كنت مسافراً مع والدي إلى مدينة طرطوس، طلبوا منه أمام الحاجز بطاقة الهوية فقدم فاتورة الكهرباء. منه أيضاً تعلمت حس المفارقة والبساطة.

من هو معلمك الأول في الشعر؟

لا أنكر أن سليمان عواد كان معلمي الأول. وقتها كان ينشر في" الآداب" و "الأديب". وهو من عرّفني على الشعر الحديث. قرأ لي رامبو مترجماً. وهو من أوائل من كانوا يكتبون النثر.

كنت وقتها في الرابعة عشرة من عمري، وما زلت أتلمس خطواتي الأولى المرتبكة.

من المعروف أن أدونيس هو الذي اكتشفك شاعراً.

تعرفت على أدونيس في سجن المزة. وكان شاعراً معروفاً. بعدها التقيته في بيروت وقدمني لجماعة "شعر" لكني أعتقد أنه لا يمانع اليوم في تقديمي لمحكمة "نورمبرغ ."

مشكلة أدونيس أنه يتخيل الحرب من دون أن يعيش في وحل الخندق. لا أنكر أنه شاعر مهم، وأعتقد أن قصيدته "قبر من أجل نيويورك" إحدى أهم القصائد في الشعر العربي الحديث، لكنه ما إن غادر إلى الغرب حتى فقد أصالته. إنه معلم في الشرق وتلميذ في الغرب. ثم لماذا كل هذا التنظير للقصيدة، وماذا يعني القارئ إن وضعت كلمة أو حرفاً على يسار حرف، أو نقطة على خصر نقطة. إذا كانت السجون والمستشفيات والأرصفة تغص بروادها. مأساة ليس الشعر العربي وحده فحسب بل الحياة العربية بأسرها، تكمن في الازدواجية على حساب التفرد، والمكر على حساب البراءة .

أنا لا أحب القصيدة الفكرية ، وأدونيس كل شهره فلسفة، وهو منذ البداية، يعرف إلى أين يذهب وكيف يسير، منظم ومرتّب. لا أفهم شعره.

ويوسف الخال؟

تعرفت على يوسف الخال وكان عمري ٢٣ سنة. وقد احتضنني في مجلة شعر. مرة طلب مني قصيدة . قلت له" :غداً سأحضرها". في الليلة ذاتها كتبت "حزن في ضوء القمر" ثم أحضرتها له في اليوم التالي، ولم يقنع بالأمر. كانت طموحاته بتطوير حركة الشعر العربي أكبر من طاقته . وهو كإنسان أهم من شعره بكثير. حتى وهو ينطفئ كان يضيء الآخرين. حين جئت بيروت كنت عاطلاً عن العمل، وكان يوسف يحاول أن يجد لنا عملاً (فؤاد رفقة وأنا) في الصحف ، ويرسلنا ، حيث نبدأ عملنا بالتعرف إلى السكرتيرة، ونعرض عليها الزواج، فيتصل أصحاب العمل بيوسف ليقولوا : "هؤلاء شغيلة أم خطّيبة؟."

وأنسي الحاج؟

أنسي من أعز أصدقائي، ولا أنسى أيامنا سوية في بيروت. هو طاقة إنسانية جبّارة. أكثر ما أحب في الإنسان الموقف، وأنسي رجل موقف لا مواقف. شعره ساقية صافية، وليس نهراً مسموماً. أحبه شاعراً وإنساناً وصامتاً.

نزار قباني؟

شعره المنفعل بالأحداث، لا يختلف عن أي تصريح رسمي لأي مسؤول حكومي في العالم العربي. وهو في شعره الثوري كأنه ياسر عرفات أو المطران كبوجي، وفي جلساته الخاصة كأنه بائع على بركات الله في جونيه أو الأشرفية. شاعر كبير بقضايا صغيرة.

وأعتقد أن مأساة نزار قباني تتمثل في أنه لا يحب ولا يكره ، لذلك تبث الإذاعات معظم أشعاره. مرة قال لي: "أنت أصدقنا."

محمود درويش؟

شاعر موهوب جداً، لكنه غير صادق.

كمال خير بك؟

بطل قتلته الشعارات.

أنطون سعادة؟

شاعر أخطأ الطريق.

بدر شاكر السياب؟

كان السياب صديقي الحميم. وهو يشبهني ف يجانب من سيرته ، لأنه كان بسيطاً وصادقاً مثلي. كان يبيع الصدق ولا يشتري إلا الأكاذيب. لم أنسَ كيف كنا نتسكع في بيروت، وكان أشبه بحطام بشري ، يغني بحزن نادر . وقد رثيته بقصيدة:

"أيها التعس في حياته وفي موته
قبرك البطيء كالسلحفاة
لن يبلغ الجنة أبداً
الجنة للعدائين وراكبي الدراجات."

وأعتقد أن أكبر خطأ ارتكبته هو أنني تقدمت في العمر، ولم أمت باكراً كما فعل السياب.

عبد الوهاب البياتي؟

البياتي بنى كل أمجاده الأدبية والسياسية على أساس أن جميع أنظمة الأمن في العالم تطارده، وهو في الحقيقة لم يدخل مخفراً في حياته، ولم يعترض طريقه ولو شرطي مرور.

وزكريا تامر؟

زكريا تامر حدّاد في وطن من الفخار. إنه صديق العمر والتسكّع والمقاهي.

من تحب من الشعراء القدامى ؟

أبو نواس.. أعشق الحزن في أشعاره، إنه قريب من طباعي، لكن للأسف فإن المناهج الدراسية شوّهت صورته الحقيقية. وأحب ذاتية المتنبي وتمرده. وأحياناً أجد في عبارة أو مقطع في أغنية،

شعراً، أكثر مما هو موجود في المعلّقات مجتمعة .أغنية فيروز "كيفك إنت" تساوي عندي كل شعر البحتري.

من هو الشاعر ، كيف تختزل صورته بجملة؟

الشاعر هو ورقة النشّاف اليومية التي تجفف آلاف الصفحات الدامية في حياتنا. الآخرون يجتازون طريق الشعر الوعر والشائك في المركبات وأنا أجتازه حافياً. الشعر هو الناطق التاريخي باسم الطفولة البكماء.

ما هو مستقبل الشاعر العربي؟

إن مستقبل الشاعر العربي في ملعقته..

عصفور أحدب
يستوطن
غرفة بملايين الجدران

كنت مطارداً في فترة من حياتك، أين كنت تختبئ؟

في غرفة واطئة بحي "عين الكرش"، غرفة نصفية، كان علي أن أنحني كي لا يصطدم رأسي بالسقف.
وفيها كتبت "العصفور الأحدب "مستوحياً العنوان من حالتي هذه.

)تصف سنية صالح هذه الغرفة وتلك الفترة :كان الماغوط يرتعد هلعاً إثر كل انقلاب مرَّ على الوطن، وفي أحدها خرجت أبحث عنه، كان في ضائقة قد تجره إلى السجن أو ما هو أمر منه، وساعدني إنتقاله إلى غرفة جديدة في إخفائه عن الأنظار، غرفة صغيرة ذات سقف واطئ حشرت حشراً في خاصرة أحد المباني بحيث كان على من يعبر عتبتها أن ينحني وكأنه يعبر بوابة ذلك الزمن.
سرير قديم، ملاءات صفراء، كنبة زرقاء طويلة سرعان ما هبط مقعدها، ستارة حمراء من مخلفات مسرح قديم. في هذا المناخ عاش محمد الماغوط أشهراً عديدة(.

كانت غرفة ضيقة ومسدلة الستائر كأنها غرفة تحميض. وليس لدي ما أفعله سوى قراءة الكتب.
كانت سنية صالح وكذلك زكريا تامر يجلبان لي الكتب.

)تقول سنية صالح: كنت أنقل له الطعام والصحف والزهور خفية. كنا نعتز بانتمائنا للحب والشعر كعالم بديل متعال على ما يحيط بنا. كان يقرأ مدفوعاً برغبة جنونية. وكنت أركض في البرد القارس والشمس المحرقة لأشبع له هذه الرغبة، فلا ألبث أن أرى أكثر الكتب أهمية وأغلاها ثمناً ممزقة أو مبعثرة فوق الأرض مبقعة بالقهوة حيث ألتقطها وأغسلها ثم أرصفها على حافة النافذة حتى تجف. كان يشعل نيرانه الخاصة في روائع أدبية كانت الهتافات في

الخارج تأخذ من بعيد شكلاً معادياً(.

كنت دائماً في غرفة ضيقة. كان لدي بابور كاز وفرشة ومطبخ بحجم معلف الفرس، وليس لدي ثمن الأجرة، فكنت أترك الأغراض كبديل .مرة حين قررت الهرب إلى بيروت، تسللت من الغرفة، فقبضت عليّ صاحبة الغرفة، وأعطتني أغراضي وقالت: الله معك.
وفي إحدى هذه الغرف الضيقة أيضاً، كتبت "غرفة بملايين الجدران."

متى كتبت "العصفور الأحدب"؟

في العام ١٩٦٣. وقد أخذت مني أقل من عشرة أيام. وكنت قد كتبتها كقصيدة ثم حولتها إلى مسرحية، بعد أن تعددت الأصوات، أصوات كانت تريد الصراخ فأفسحت لها المجال واتخذت هيئة أبطال فيما بعد.

ولكن الشعر ظل يتدفق في عروق المسرحية، كهذا المقطع مثلاً:

لا تفكر كثيراً أيها الأمير الشاب
لا تضربْنا بالسياط
انفخ علينا فقط لتسقطَ جلودنا كدهان الطاولات
أو أرسلْنا في عرباتٍ مطفأةٍ إلى السجون
حتى العصافير هناك تحلّق وأعشاشُها في أعناقها
حتى الرفاق الصغار يمرحون عند الأصيل
وأكفانهم ملفوفةٌ مع ورق الزكام
أو اضربنا، اضربنا
حتى تنكسرَ القصبةُ ويسيلُ الدم على الراحتين
فجلودنا القديمة معبَّأةٌ في جيوبنا
وأهدابنا الرائعةُ أكواخٌ للعصافير.

لست مختصاً بالمسرح، ولا يهمني إذا كانت هذه المسرحية شعراً أم لا. أرغب بإلغاء المسافة بين

كل الأجناس الإبداعية. ومازلت أعتقد بأن جميع أجنحة الفن في العالم العربي مهيضة، وإذا اعتبرنا هذه المسرحية جناحاً شعرياً آخر، فلا بد من ذكر ملاحظة، وهي أنه جناح يقطر دماً أكثر من كل قصائدي السابقة، لأنني كنت خلالها، أبحث وأقارع أشياء كثيرة. إلا أن هذه المسرحية رغم جوها المأساوي، يمكن اعتبارها مشروع ابتسامة صفراء.

لماذا لم يتطور المسرح العربي؟

لسبب بسيط للغاية، فالحوار الذي هو جوهر المسرح، ظل ممنوعاً في العالم العربي وما يزال. الحوار الوحيد المسموح به هو حوار السوط والصرخة، حوار الجلاد والضحية.

هل تذكر هواجسك الأولى في كتابة "العصفور الأحدب"؟

لا أظن أن الغراب الجريح يضع رؤوس أقلام، أمام منقاره لينوح بموجبها. أذكر أنها كانت رثاءً من القلب للإنسان العربي، وتنديداً من الأعماق بمن وضعوه على المشرحة وثبتوا أطرافه بالدبابيس كالأرنب، وراحوا يجرون عليه التجارب. أردت أن أقول أن هذا الإنسان المعذّب، ليس أرنباً ولا مريضاً، وأن المرضى هم أطباؤه وممرضوه.

في الفترة ذاتها كتبت روايتك الوحيدة "الأرجوحة"، أعتقد أنها أقرب ما تكون إلى السيرة الذاتية في فترة سجنك؟

نعم. كانت "الأرجوحة" أشبه بالسيرة الذاتية. بعد أن حُلَّ موضوع المطاردة وكفوا عن ملاحقتي كتبتها. وتركت مسودتها عند أمي لمدة ٢٥ عاماً.
وحين استعدتها، حاولت إكمالها فلم أستطع، فمن الصعب إستعادة الانفعالات القديمة. لكن المشكلة التي واجهتني مجدداً ، هي مسألة الخط، إذ كنت أكتب بخط صغير غير مقروء، تحسباً من وقوع النص بيد الأمن. لذا تعذبت كثيراً، بعد كل ذلك الوقت، في فك رموزه.

حين قرأت "الأرجوحة"، تعاملت مع شخصية" غيمة" على أنها سنية صالح. كيف تعرفت عليها في الحياة؟

في بيت أدونيس في بيروت، وهي شقيقة خالدة سعيد، زوجة أدونيس. وحدث التعارف بيننا من خلال التنافس على جائزة جريدة "النهار" لأحسن قصيدة نثرية، وحين عدت من لبنان إلى سورية، جاءت هي للدراسة في جامعة دمشق، وساعدتها في استكمال أوراق الجامعة، ثم نشأت بيننا قصة حب عاصفة.

سنية هي حبي الوحيد، نقيض الإرهاب والكراهية، عاشت معي ظروفاً صعبة، لكنها ظلت على الدوام أكبر من مدينة وأكبر من كون، إنها شاعرة كبيرة لم تأخذ حقها. ربما آذاها اسمي، فقد طغى على حضورها، وهو أمر مؤلم جداً. كما أنها لم تأخذ حقها نقدياً.

والنقاد لم يأتوا على ذكرها في مسار الشعر العربي المعاصر، أكثر مما يأتي الملحدون على ذكر الله. سنية كانت شاعرة كبيرة في وطن صغير، وبين نقاد صغار. وبإعتقادي أن ديوانها الأخير "ذكر الورد" الذي كتبته وهي على سرير الاحتضار بين باريس ودمشق، من أجمل وأعمق ما كتبت عن الإنسان العربي في هذا العصر .إنها أكبر شاعرة عربية، لا نازك الملائكة ولا غادة السمان، ولا أي شاعرة على الإطلاق.

هل كان بينكما خلافات؟

في حياتي كلها لم أتفق معها. نحن من عالمين مختلفين، رغم تشابه ظروفنا. عالمها رومانسي حالم روحاني، صوفي، بينما كان عالمي يغوص بالوحل والأرصفة والشوارع والبول والقسوة مع ذلك كانت حياتنا جميلة.

)يقول عنها في "الأرجوحة": لقد كان قروياً حزيناً لا تزال رائحة العنب والتلال الجرداء متخمرة

في شعره، يشق طريقه كالمحراث الصغير بين النساء ويخلفهن وراء سريره كالأثلام، في كل المدن والأقبية والمكاتب التي عاش فيها كصحفي وكمتشرد. كان يعتقد أن الحب هو ذلك الارتجاف الذليل الخاطف في عروق الظهر، تلك النار المندفعة كماء الجداول حول الرئتين وأمام مصب القلب، حيث ينتهي كل شيء بمجرد تعقيم اليدين وترتيب الشعر أمام المرآة.
إلى أن جاءت "غيمة "وأحكمت اللجام الحريري بين القواطع، وحكت بأظافرها الجميلة الصافية قشرة التابوت وبريق المرآة ، وأغلق كل الشوارع ، ولملمت كل أوراق الخريف ووضعتها في أنبوب المدخنة للذكرى. أو بالأحرى عندما جاءت لتقلب كل شيء رأساً على عقب، وتجعل الكتب والثياب والأوراق وكل ما تزدحم به غرفته الصغيرة أشبه بأسلاك حرب لا يعرف إلى من تؤول في النهاية.

ولكنه يرددها كالكروان مئات المرات في اليوم: إن حياته من دونها لا تساوي أكثر من علبة ثقاب."

كانت سنية أمي ومرضعتي وحبي ومرضي .وكان رأيها أساسياً فيما أكتب، فإذا كتبت شيئاً وترددت أمامه ولو للحظة واحدة. كنت أمزقه وأعيد كتابته من جديد. أما إذا قالت "حلو" فكنت أحس باطمئنان كبير. إنها قارئتي الأولى ومعلمتي الأولى في الشعر وفي الحياة. حين كانت مريضة، جلست بقربها وهي على فراش الموت، حين كانت مريضة، أقبّل قدميها المثقوبتين من كثرة الإبر، فقالت لي عبارة لن أنساها: "أنت أنبل إنسان في العالم."

ألم تحب امرأة أخرى بعد رحيل سنية صالح؟.

كل النساء من بعدها نجوم تمر وتنطفئ وهي وحدها السماء.

كتبت على شاهدة قبرها: "هنا ترقد الشاعرة سنية صالح آخر طفلة في العالم"، هل تزور قبرها؟.

لم أزر قبرها في مقبرة "الست زينب" إلا مرة واحدة. حزني عليها لا أعرضه في المقاهي

والشوارع، إنه إحساس شخصي جداً ومدفون في الأعماق دون شاهدة. سنية هي المرأة في كل ما أكتب. كانت كعروق الذهب في الأرض، والآن نادراً ما أراها في أحلامي.

رثيتها في قصيدة مؤثرة عنوانها" سيّاف الزهور"؟.

ثلاثين سنة، وهي تحملني على ظهرها كالجندي الجريح، وأنا لم أستطيع أن أحملها بضع خطوات إلى قبرها.. إنها "يتيمة الدهر" وكل الدهور.

صورة المرأة في كتاباتك غائمة، ربما تحضر صورة أمك بالدرجة الأولى؟.

المرأة هي المكان الوحيد الذي يجعل من الجهات الأربع جهة واحدة لا يمكن تحديدها.

والحب؟ .كان على الدوام يأخذ طابعاً حسياً لديك؟.

الحب مهما بلغ من العظمة والقدرة والخلود، ليس أكثر من ملل أخلاقي ينتاب الذكر ويحرقه كالمحلول المركّز في الأماكن الشفافة من القلب حيث يتجمع دخان المقهى وغبار الشوارع. وتنفجر كلها بما يشبه انفجار البندقية في الرأس. ولعل الحسية في وصف الجسد وعلاقات الحب متآتية من جوعي التاريخي للحنان. أنا كنت جائعاً، ولم أراع جسدي، وكل ما يمكن أن يمارسه الشاب من جنس وعربدة وسكر، مارسته باكراً، وها هو جسدي ينتقم مني بالتدريج.

مفردة الحزن لا تفارق قصائدك، حتى أنك تصف نفسك بالحاجب القديم على باب الحزن؟.!

أنا شخصياً لا أعرف كيف بدأ حزني، ولا يعرف أي إنسان متى بدأ الحزن عند البشرية، ولكني أعرف أن الحزن شيء يولد مع الإنسان العربي، ويظل معلّقاً في عنقه، كما يُعلَّق القفص في عنق

العصفور، إذ هو يغرد ويطير وينام، ويظل هذا القفص في عنقه. المشكلة أن بعضهم يملؤه زهوراً، وبعضهم يملؤه دموعاً.. وأنا من النوع الذي يملأ هذا القفص بدموعه. ولا يمكن لأي بهرجة أو انصرافات خارجية، أن تصرفني عن أن في عنقي قفصاً. وما أعرفه أنني لم أصنعه ، بل صنعه الطغاة، صنعه التاريخ. صنعه الفقر.

حزنك لا تتخلله أية نسمة أمل.!

لا أعتقد أن حزني أعمى، بل هو حزن مبصر .ورؤى الآخرين هي الرؤى العمياء. بدليل أن ما كتبته في الخمسينات، يقرأ الآن وكأني كتبته في هذه اللحظة. وإذا كان شعري حزيناً، فإن المرحلة التاريخية والبيئة والمناخ الذي نعيشه، طابعه حزين، ولا أحد يولد من بطن أمه متفائلاً أو حزيناً. وحين كتبت قصائدي الأولى، كان الجميع متفائلاً. أنا كنت أرى العكس. كنت أرى أن المرحلة تبشّر بالحزن والتشاؤم والنكسات والهزائم.
الحزن هو جوهر كل إبداع وتفوّق ونبوغ. حتى الكوميديا الراقية، إذا لم يكن منطقها الحزن تصبح تلفيقاً وتهريجاً.

ألم يفارقك الحزن مرة واحدة؟.

بلى. عندما أحببت لأول مرة. وكان ذلك منذ سنوات طويلة وبعيدة.

بعد هذه السنوات، ألم ينضب حزنك؟.

بالعكس ازداد أكثر. لدى كل منا مخزون تاريخي من الحزن، مثل الأمراض التي لا تكتشف في الطفولة، بل تظهر أعراضها لاحقاً، ومشكلتي أنني كنت أحس هذه الأعراض وأفضحها، بينما كان الآخرون يرون الجلد، السطح، وكنت أرى أبعد من هذا الديكور التاريخي. الحزن ليس صفة بل هو وشم حياتنا، فالإنسان عندنا معلّق بأنشوطة .وما أكثر الصدف التي تسحب الكرسي من تحت

قدميه. كأن الشقاء أوكسجين آخر في الهواء، أحياناً أكون ممتلكاً كل عناصر السعادة، ومع ذلك أشعر ببؤس الحشرة.

البعض يراك رومنسياً، رغم الخشونة التي تغلف مفرداتك؟.

ربما في بداياتي كنت رومنسياً، في الأربعينات والخمسينات، نتيجة قراءات مختلفة من الأدب العالمي. وكان موقفي من هذه النماذج الشعرية والأدبية، كالريفي الذي يدخل السوق، فيرى أضواء وحوانيت، وسيارات، لكنني عندما أعود إلى غرفتي وبيتي الريفي المتواضع، لم يكن في ذاكرتي سوى "عويل الريح" و" وحشة الورق أمامي."

أنا شخص أكتب كما أعيش، وأعيش كما أكتب. ربما كانت حرب لا تحرك في أعماقي كلمة، بينما أغنية من النافذة، أو سعال إنسان ما، في آخر الشارع، يفجّر في أعماقي ما لا تستطيع أن تفجّره لي حروب دامية.

مرة قلت: "اختصاصي الوحيد الحرية" متى أحسست بقيمة الحرية؟.

عندما كنت في السجن. وأعتقد أن الحرية هي منطلق كل شيء، ولأن الحرية غير واضحة أو مشكوك بها، فمن الطبيعي أن يتناول الشك كل شيء، فالإنسان العربي محتل. مناطق احتلها الرعب، ومناطق احتلها الجوع، ومناطق احتلها اليأس. إن أي حرية في العالم لا تعطى بل تؤخذ، وعلى المبدع الأصيل أن يدفع ثمن ما يكتب لا أن يقبض كما يفعل المزيفون وتجار الكلمة. إن ما كابدته طوال حياتي من خوف ورعب من كل كلمة أكتبها، لا يعادله سوى كلماتي التي لا تذهب سدى. ويعزيني أن لي أشجاري الخاصة في صحارى الفقراء والتي تعصى على أي فأس أو خريف. لا أنكر أن لكل كاتب رسن، وأنا أطلت رسني بإصراري، وليس بشجاعتي. لست عنترة ، لكني أكتب بصدق ولم أكذب أبداً. هاجس الحرية يلاحقني، وهو قديم جداً، ولن ننتصر على أعدائنا وأعداء حريتنا وتاريخنا ومستقبلنا بالسلاح الأبيض أو الأحمر، بل بالسلاح الأزرق، أي بالكلمة. وهكذا تجد أنه لا تخلو مقالة صحفية لي من دون ذكر الحرية.

وأنت تكتب ألا تخشى الرقيب؟.

في داخلي رقيب ذاتي، لكن أصبح عندي حرفة في مراوغته والتحايل عليه. الجمال يقتل الرقيب، فحين تكون قوياً ولا أستطيع عليك، أحاول كرسام الكاريكاتير، أن أجد لك عقب آخيل.

ألم تهادن مرة في حياتك؟.

أنا لا أباع ولا أشترى، ومنذ الخمسينات الجميع يعرف ذلك بدءاً من أصغر ضابط مخابرات. لدي استعداد أن أتنازل عن مليون شي ولكن لا أتنازل عن قلمي أنا الوحيد الذي لم يتغير ولم يتقولب. أنا محمد الماغوط، أينما كنت، في الشام، أو في بيروت، في الشانزليزيه أو في المرحاض. أنا أنا محمد الماغوط.

كتبت مرة: "سأمحو ركبتي بالممحاة، سآكلها حتى لا أجثو لعسكر أو تيار أو مرحلة. ثم أنا الذي لم أركع وأنا في الابتدائية أمام جدار من أجل جدول الضرب وصقر قريش وعقبة بن نافع، وأنا على خطأ، لن أركع لأحد وأنا على حق.

رغم كراهيتك للشرطة، فقد عملت فترة من حياتك في مجلة الشرطة؟.

كان وزير الداخلية صديقي ويدعى محمد رباح الطويل .قال أنه يحب كتاباتي، ولم يكن لدي عمل. وعندما عينوني رئيس تحرير للمجلة، بقيت يومين أقف للحاجب خوفاً. عشنا في الخمسينات مرحلة الإرهاب النبيل.

دائماً تكرر عبارات مثل الخوف، الذعر، العزلة.

ولدت مذعوراً وسأموت مذعوراً. أنا مسكون بالذعر، وأي شيء يخيفني. الأمة العربية لها أسس فريدة من نوعها. جميع الأمم مقوماتها اللغة والتاريخ والدين، ما عدا الأمة العربية فمقوماتها اللغة والتاريخ والدين والخوف. وأنا فرد في هذه الأمة، وخوفي طبيعي وطمأنينة الآخرين هي المستغربة. والعربي الذي لا يخاف أو المطمئن، أشك بعروبته.

قلت مرة: "هذا القلم سيوردني حتفي، لم يترك سجناً إلا وقادني إليه، إلى أين قاد السجن ذلك القلم؟.

قاد إلى مزيد من الإصرار على محاربة الظلم والقهر داخل السجون وخارجها. وربما يعبر هذا المقطع من إحدى قصائدي عن هذه الحالة:

"ما من قوة في العالم
ترغمني على محبة ما لا أحب
وكراهية ما لا أكره
ما دام هناك
تبغ وثقاب وشوارع."

أنت تدخن بشراهة؟

أستهلك يومياً أربع علب من السجائر.

وتشرب طوال اليوم؟

في فترة ما، تحولت إلى كائن كحولي، نتيجة حالة كآبة طويلة. الآن أشرب أقل. عالمي ويسكي

ودخان وحزن. حزني ملكي.

وهذه العزلة التي تعيشها منذ فترة ألا تزيد من كآبتك؟

لا أحب أن أقابل أحداً. أحب الوحدة، وأحب الصمت ، وأشعر بالارتباك بوجود الآخرين. أنا إنسان سوداوي وتعس ولم أعرف الفرح طوال عمري. فأنا عشت في البرد والوحل وبين المقابر، وإلى اليوم، أحس أنني متشرد في الروح والقدمين.

ليس لدي أصدقائي جدد. وعالمي هو الكتابة. أنا خارج دفاتري أضيع ..دفاتري وطني.

مرة هتف يسوع: "إلهي لماذا تخليت عني" وأنت صرخت: "إلهي إنني وحيد!"

المسيح صُلب مرة واحدة، وأنا أصلب كل يوم مئة مرة. هو صلب من أجل السماء، وأنا صُلبت من أجل الأرض. ولذلك فأنا بلا أتباع أو مريدين. أنا رجل ظلمات، رجل ظل، وفي حياتي لم أجلس في منتصف الصف، في السينما أو في المسرح، أو على طاولة وسط المقهى، دائماً أنتقي ركناً منعزلاً عن كل شيء وأحدق في الرصيف.

لماذا؟

لأتأمل الأقدام الحافية، وسيارات الشبح في شارع واحد. كأن أشباح الليل والكوابيس لا تكفينا.

كوابيس النهار، هل هي ذاتها كوابيس الليل؟

منذ يفاعتي ، كنت أعاني من الكوابيس، ولا أذكر أنني حلمت حلماً إلا وكنت فيه حافياً، أبحث عن

حذائي، أو ضائعاً أبحث عن هويتي المفقودة، أو مذعوراً أحمي قصائدي بيديّ المقطوعتين.

في كل ما تكتب هناك صورة، مشهد بصري..

إذا كنت أعتمد على الصورة في نقل انطباعاتي عن العالم، فلأنني لا أملك سوى القلب والعينين. كل ما أتذكره في حياتي يأتي على شكل صورة. طفولتي شريط صور. أكثر ما أحببت في طفولتي، ذاك الدكان الذي كان يبيع دخان لف وقضامة. لن أنساه ما حييت.

"أعطني طفولتي وضحكاتي القديمة على شجرة الكرز
وصندلي المعلّق في عريشة العنب
لأعطيك دموعي وحبيبتي وأشعاري."

في مسرحياتك تتلاشى الصورة، وتبرز الكلمة؟

في المسرح، أعتبر الكلمة هي الجبين، وبقية العناصر هي الأطراف المكمِّلة.

لكن الشعر صورة، والشعر هو هيكل ما تكتبه في مسرحياتك؟

الشعر أساس كل مسرحية أكتبها. المسرحية قصيدة مبسّطة، عندي سخرية في الشعر كما في المسرح. وأحاول في المسرح أن أعبّر عن الأشياء التي لا تستوعبها القصيدة.
المسرح عندي أشبه برجل يدخل إلى غرفة مظلمة، فأدله على مفاتيح الكهرباء، أقول له أنه ينام على السرير بدل العتبة، وأن يضع حذاءه على العتبة بدل السرير، وأن لا يستحم في المطبخ.

وأعتبر الإنسان العربي عبر العصور أشبه بصياد في عرض البحر، يبحث عن لقمته وكرامته وحريته، ومعه شبكة وأشرعة وبوصلة، لكن أعمى! في كل ما أكتب، شعراً ومسرحاً، أحاول أن

أحميه براحتي وبدفاتري من العواصف، وأحاول أن أدله على شاطئ الأمان. أفعل ذلك بقدر ما أستطيع ، مع أنني أكثر ضياعاً منه، وأكثر شغفاً بالاهتداء إلى الخلاص.

أبطالك من الهامشيين في المسرح والسينما؟

إذا كان هناك أمل في هذه الأمة، فهو من الهامشيين، وليس من ممثلي النخبة وأصحاب الوجاهات. لكن لا بد من إيضاح نقطة أساسيّة: الهامشي عندي هو المواطن الذي يبقى في الظل، لا الهامشي بالمعنى الفلسفي.

عنوان مسرحيتك الأخيرة "خارج السرب" هل يعبّر عنك؟

أنا بطبيعتي خارج السرب، في الشعر والمسرح والحياة. أنا جملة معترضة في الثقافة العربية.

في كل ما تكتب، تؤكد على العاطفة فحسب..

أنا أشبه الصياد، أشعر بغريزتي وليس بعقلي. وكلما تقدّم العقل خطوة تراجع خطوتين. العاطفة والشعر توأمان سياميان، يعيشان معاً ويموتان معاً والعقل متلصلص عليهما.

هل لديك طقوس معيّنة في الكتابة؟

لا.. أنا فوضوي جداً. قد أكتب عبارة على وصفة دواء، أو على علبة محارم. تأتيني فكرة فأكتبها على أقرب ورقة تقع عليها يدي. أحياناً أكتب على ورقة وأتركها على ظهر البرّاد، أو في غرفة النوم .ثم أقوم بجمع هذه الأوراق المتناثرة وأجلس لأكتب. غالباً ما تضيع أوراقي، وأنسى أين وضعتها.

أكتب صباحاً وظهراً، وأنا جائع، وحتى في الشارع سابقاً كنت أعتمد على ذاكرتي إذا أتتني فكرة، الآن لا أتذكر سوى اسمي.

عندما تخطر لي فكرة أقف في الطريق وأسجّلها. أعتقد أن ثمة خللاً ما في المبدع الذي يتقيّد بمواعيد وأشياء ثابتة.

اليد التي كتبت فيها آلاف الصفحات، أحياناً لا أنتبه إليها إلا إذا جُرحت في المطبخ. لا أحتاج إلى موسيقى أو هدوء حتى أكتب، أكره الكتابة وراء مكتب، أو المطالعة في مكان مريح. يجب أن تكون هناك ضجة، أو أشجار، أو إزعاج ما. أجمل نصوصي كتبتها في غرف ضيقة "غرفة بملايين الجدران"، أو في الحافلات، لذلك تجد في مسوداتي كلمة صاعدة وأخرى نازلة. كانت الطرق حينها مليئة بالحفر، الآن عبدوها وعبّدوا الناس معها.

)الأريكة التي يتمدد عليها الماغوط في صالة منزله، لا يغادرها إلا إلى المطبخ لإعداد كأس أو إحضار غذاء بسيط. أما الطاولة التي أمامه، فتشبه سفينة نوح: عشرات الأنواع من الأدوية، أرقام هواتف، زجاجات كحول، كتب، دفتر ملاحظات، منفضة سجائر، ولاعات، سكاكر. على يمينه تماماً جهاز الهاتف ، وآلة تسجيل تبث أغان أو نشرات أخبار. وعلى الجدار المقابل، لوحات وصور فوتوغرافية ترصد لحظاته الأكثر توتراً في حياته. اللوحات هدايا أصدقاء العمر: فاتح المدرس ولوحته الشهيرة "العصفور الأحدب"، لوحات لنذير نبعة وشلبية إبراهيم، وإلياس زيات. صور شخصية وأخرى مرسومة بأقلام الفحم، إحداها رسمها فنان استرالي يدعى فرانك بك. صورة لسنية صالح. لديه ألبوم خاص في مكان آخر. وفي الصالة الأخرى تمثال نحتي للشاعر، أهداه إياه النحات فايز النهري. النافذة مغلقة على الدوام، رغم سحب الدخان.(

ما الذي يعيدك إلى الكتابة بعد انقطاع؟

أنا لا أنقطع عن الكتابة. لا أستطيع أن أعيش يوماً واحداً، دون أن أكتب. ربما في لحظات المرض أتوقف .لكن الأزمات تفجر طاقتي للكتابة. في حرب الخليج حطمت أشياء كثيرة في المنزل .الكتابة عندي عزاء شخصي لا سعي إلى الشهرة والمجد. أكتب أكثر بكثير مما أنشر، فمشكلة الكاتب العربي الآن، كثرة التحفظات والموانع والمحرمات. إنه كمن يريد أن يستحم في

الشارع من دون أن يراه أحد. الكتابة لدي هي صلاة وعبادة. لا مال ولا سلطة ولا امرأة تعوضني عن الكتابة. حتى لو انتعلت كل أوراق النقود في العالم، لن أصل فيها إلى حيث أريد.

ألا تفكر في الخلود؟

خلودي ككاتب لا يعنيني في شي ، حتى لو احترقت كتبي في الشوارع وتدفأ بنارها الناس، لا أشعر بأي أسف أو حزن عليها . سيان عند النمر إن أصبح جلده حذاء نسائياً، أو عُلق في صدر قصر.

هل تفكر بالموت؟

ليس الكفن والمشيعون والندّابون، العلامات الوحيدة على الموت.
..نعم أخاف الموت أحياناً، أو بالأحرى أخاف ما يسبق الموت. المرض، أنا لا أستطيع المشي أو الجلوس. لقد عاملت جسدي طيلة سنوات كخصم، تواطأت عليه ومارست بحقه شتّى أنواع القمع والإرهاب، والآن صار ينتقم مني.

ألم تحاول الإقلاع عن التدخين؟

لا. أنا أدخن منذ كان عمري تسع سنوات. كنت ألتقط أعقاب السجائر وأدخنها. منذ أيام طمأنني أحد الأطباء، أن أضرار لفافة واحدة، مثل أضرار علبة تبغ كاملة، لذلك أدخن باطمئنان بناء على هذه النصيحة الطبية.

تسمع الموسيقى على الدوام؟

لا أستغني عن سماع الموسيقى. وأسمع كل شيء من بيتهوفن وباخ إلى ناظم الغزالي وصباح فخري. أحب فيروز وعبد الوهاب وعبد الحليم. أحب العتابا كثيراً. ربما كان حنيناً إلى مسقط الرأس. إلى الآن، أحفظ شيئا من العتابا، التي كانت تغنيها أمي في طفولتي:

"جمال محمّلة وأجراس بتعنّ
وأيام المضت عالبال بتعن
حملت بضاعتي ورحت بيعن
غريب وما حدا مني اشترى."

تستعيد طفولتك كثيراً، رغم بؤسها!

أجمل ما في طفولتي أنها انتهت بسرعة، وأقسى ما فيها أنها لن تعود أبداً، وما بين طفولة الجسد وطفولة الروح، لم أنسج لحياتي خيطاً واحداً. كنت دائماً أغزل والآخرون يلبسون.

من مقهى "أبو شفيق"
إلى الشانزيلزيه

أمضى محمد الماغوط حياته متسكعاً على الأرصفة ومتشرداً في المقاهي. المقهى عنصر أساسي

في يومياته. وقد تنقّل بين أكثر من مقهى في دمشق: "الأتوال"، "الهافانا" القديم، ثم اكتشف قبل ثلاثين سنة "مقهى أبو شفيق" في الربوة على كتف نهر بردى، وهكذا كان يوزّع أوقاته بين "أبو شفيق" صباحاً، و"مقهى الشام" مساء. إلا أن ذكرياته الأعمق، تتعلق بمقهى "أبو شفيق" على وجه التحديد.

متى بدأت علاقتك بمقهى "أبو شفيق"؟

منذ ثلاثين سنة. كنت أستيقظ فجراً، وأذهب إلى هذا المقهى مشياً على القدمين. كل يوم أقطع نحو خمسة كيلو مترات لأصل إليه. أحس بألفة شديدة تجاه هذا المكان. كنت أقرأ فيه الصحف وأكتب. كل أعمالي الأخيرة كتبتها في هذا المقهى: مسرحيات "ضيعة تشرين"، و "غربة"، و"كاسك يا وطن"، و"شقائق النعمان"، كما كتبت فيه سيناريوهات أفلامي : "الحدود"، و"التقرير"، و "المسافر". وحتى بعض قصائدي.

نهر بردى صديقي، فهو يشبه الشاعر الصامت العجوز. أنا مثل بردى، حين يجف أجف، وحين يتدفق أتدفق. ومقهى "أبو شفيق" موجود في كل أعمالي بكراسيه وطاولاته وأشجاره، قبل أن تتحول مصاطبه الخشبية العتيقة إلى الإسمنت. وتتوقف شلالاته عن التدفق. الشلال الذي كان يهدر بين أرجل الزبائن في عدد من السواقي، بات يهدر فجأة ويسكت فجأة ، كأنه تابع لوزارة الإعلام.

وفي السنوات الأخيرة، أُغلق المقهى، وبقيت الزبون الوحيد فيه. كان فارس نادل المقهى، يأتي كل صباح، يفتح المقهى من أجلي. وبعد أن أصيبت قدمي بنقص التروية، قلت لن أعود إلى المقهى بعكاز.

كنت في الفترة ذاتها، تذهب إلى "مقهى الشام"؟

الأمر مختلف. كنت أمضي في هذا المقهى نحو ساعتين صباحاً، وساعتين مساءً. أرتّب أوراقي

المتناثرة، وأكتب، وأرى الأصدقاء، وأتأمل حركة الشارع .في هذا المقهى، كنت أكتب زاويتي "تحت القسم" في مجلة "الوسط."

هل تحب دمشق؟

دمشق مدينة أنت تحبها وهي لا تحبك. وسبق أن قلت عن دمشق إنها مدينة أعطيتها صدري أربعين عاماً، ولا أجرؤ على إعطائها ظهري ثانية واحدة. أنا لا أحب المدن التي أسكنها بل المدن التي تسكنني، ودمشق سكنتني، لذلك لا أعرف أن أبتعد عن دمشق.
منذ خمسين عاماً جئت إلى دمشق، ورغم تشردي على أرصفتها وفي أقبيتها وأسطحها، إلا أنني أحبها، خصوصاً في الليل، وتحت المطر. أحب المشي في شوارعها ودروب حاراتها. رافقت نهر بردى عمراً . لكن دمشق التي أحب بقيت في دفاتري، لأنني اليوم أشعر بغربة فيها، الناس تغيّرت وليس الأمكنة فحسب. كل ما أريده من مدينتي الحديثة هو أرصفتها القديمة. دمشق قصة الحب الأول والصوت الأول. بعيداً عن شوارعها أصاب بالكساح. دون رائحتها أصاب بزكام أبدي.

وبيروت؟

بيروت احتضنتني، أكثر مما احتضنتني أمي، أخذت بيدي عندما كنت شريداً ومفلساً. أحن إلى بيروت الخمسينيات، إلى مقاهيها، إلى شارع الحمراء. فيها تعرفت على يوسف الخال وأنسي الحاج وفيروز وعاصي ومنصور الرحباني وبدر شاكر السياب وكنت أمشي دائماً ولا أحب أن أركب التاكسي. بيروت هي الأخرى تغيّرت وفقدت دورها الثقافي. السنوات التي قضيتها في بيروت من أجمل أيام عمري، ولكنني أُبعدت عنها في مطلع الستينات. بيروت قارة تعيش في داخلي.
بيروت مثل أم منهمكة في الغسيل وإذا بان فخذاها قالوا عنها عاهرة.

أنت زرت باريس؟

باريس باختصار، نداء لكل فقراء وبؤساء العالم أن يظلوا حيث هم. فهي من القوة والجمال والمناعة بحيث تشعر وكأن كل بلاطة في أرصفتها وكل زجاجة عطر في واجهاتها وكل هديل حمامة في غاباتها وكل سيف في قبضات تماثيلها، تدفعك إلى الدهشة ثم الحسد، ثم الغيظ ثم الرحيل.

كل شيء فيها: السياسة، الدين، الفن، الاقتصاد، يبدو حراً ومرناً كراقص الباليه ومتماسكاً كحلقات السلاسل حول أقدام الأسرى. وفي لحظات الحصار الخانقة أمام مواكب الجمال اللامبالية ثمة ما يدفع الغريب فيها ويستفزه استفزازاً كي يتحرش بالمارة ويعترض طريقهم مثل "الإنسان الصرصار" في رواية دوستويفسكي الشهيرة للتخلص من وحدته ولفت الانتباه إليه. ولكن رغم كل ذلك لم أستطع أن أكتب فيها حتى ولو رسالة. وأحسست أن "مقهى أبو شفيق" أهم من كل مقاهي الشانزيلزيه ومقتنيات متحف اللوفر.

مدن أخرى تحبها؟

المدينة التي أحبها، لا أعبّر لها عن حبي بخطواتي على أرصفتها، أو بالاتكاء على طاولات مقاهيها. بيروت موجودة في داخلي. ودمشق موجودة دائماً معي، مثل فتات الخبز في جيوب الأطفال الريفيين.

صورة جانبية
في خمسين مرآة

*الزمن هو الناقد الأول في كل قضية.

*الكتابة يجب أن ترد الاعتبار للإنسان العربي بأي حال و بأي شكل و بكل الصور.

*حزبي الوحيد هو الشعر.

*الفرح مؤجل كالثأر من جيل إلى جيل ، و علينا قبل أن نحاضر في الفرح ، أن نعرف كيف نتهجأ الحزن.

*الفرح كما أتخيله صعب المنال جداً ، كالطفولة بالنسبه لشيخ يدب على عكازه.

*السجن هو أن تكون غير مطمئن حتى إلى أحلامك.

*المبدع في الشرق عامة ، قط جائع في حانوت للمعلبات.

*البطولة في عصرنا نادرة كالطوابع التذكارية.

*أنا طفل لدرجة أستطيع أن أشم معها رائحة الحليب على شفتي.

*أنا في طبيعتي سوداوي ، و لا أرى من الكأس إلا نصفها الفارغ.

*الأحلام كالزهور ، متى ذبلت يستحيل إحياؤها من جديد.

*المرأة عندي ليست جسداً أو صنماً من اللحم ، و بمجرد أن توضع في السرير تصبح صغيرة.

*لم أشعر في حياتي كلها بالحرية.

*أشعر أحياناً أن يدي التي أكتب فيها عن الوفاء و الصداقة ، لم تعد صديقة و وفية لي.

*المبدع كالنهر الجاري ، متى استقرّ تعفّن .

*استخت اللغة من سوء الاستعمال، بل اغتصبت و فقدت عذريتها على أيدي الدجالين من الخطباء والشعراء.

*لا أقوى على صبغ التابوت باللون الخضر.

*لحظة يأس أصيل أو خوف أصيل ، أجدى من ألف سنة من الأمل الكاذب أو الشجاعة الزائفة.

*لا يوجد عند العرب شيء متماسك منذ بدء الخليقة حتى الآن سوى القهر.

*الوحدة الحقيقية القائمة بين العرب هي وحدة الألم و الدموع.

*أعطونا ساعات ذهبيه و سرقوا الزمن ، أعطونا خواتم و سرقوا الحب.

*أكره المدرسة ، أكره الانضباط في كل شيء.

*لا شيء يربكني مثل المديح.

*هذا العصر ضد الموهبة.

*أنا بدوي أغني في أوركسترا الصحراء.

*أحس نفسي مطارداً ، إنه إحساس قديم. مزقت من الخوف قصائد كثيرة.

*لا يمكن ترويضي إلا بالموت.

*لدي أعصاب عظيمة تمنعني أن أنحني.

*أكره روح القطيع.

*أنا ضباب يتوه الناس بي.

*لا أمشي على رصيفين.

*الرضى كلمة لا أحبها.

*الصدق ، الكرامة ، الشهامة ، هذه أشرعتي ، ولن أتعب في الدفاع عنها.

*ثمة (لا) أبدية رافقتني و سترافقني دائماً .

*الإرهاب لم يترك لي فرصه لأحب أحداً حتى الله.

*ليس ثمة شرقي إلا و فيه شيء من الخيانة.

*الإنسان الجدّي مريض و فيه خلل.

*بيتي الشعر بلا سقف.

*ليس عندي محرمات أو مقدسات في لغتي العربية .

*الحب هو أبو الشعر ، و الكراهية أمه.

*الغرب وضع الإنسان العربي أمام خيارين: البوط العسكري أو العمامة.

*السجين لايفكر بالسجن بل بالذكريات الجميلة.

*نفطي الدموع.

*فيما مضى كان شيخ الحارة يضربني لأحفظ و أتذكر.. و فيما بعد ، كان الشرطي يضربني لأنسى

*جوعنا ما زال في مقتبل العمر.

*جميع الحقوق محفوظة و يكفلها القانون. قانون الطوارئ طبعاً .

*لا أراهن على نفاذ الخبز أو الماء أو الوقود ، بل على نفاذ الصبر.

*مدينتي محجبة و لكن بالياسمين .

*محاصر بين تيار العولمة ، وتيار الأصولية ، فكيف أوفق بين الاثنتين ؟ هل أصلّي على الإنترنت ؟.

*الطغاة كالأرقام القياسية ، لا بد و أن تتحطم في يوم من الآيام.

*عندما غنى فريد الأطرش للوحدة ، انتهت الوحدة العربية.

*الطغاة كالأرقام القياسية ، لا بد وأن تتحطم في يوم من الأيام.

مرآة أخيرة :

*أخذوا سيفي كمحارب و قلمي كشاعر و ريشتي كرسام و قيثارتي كغجري..

و أعادوا لي كل شيء و أنا في الطريق إلى المقبرة..

ماذا أقول لهم أكثر مما يقوله الكمان للعاصفة؟

منتدى حديث المطابع
موقع الساخر
www.alsakher.com